www.rahmah.de

المنحة الإلهية
في
تهذيب شرح الطحاوية

للإمام علي بن أبي العز الحنفي

أعده وضبط أحاديثه وعلق عليه

عبد الآخر حماد الغنيمي

تقديم

فضيلة الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة التاسعة

١٤٢٥هـ

توزيع

دار ابن الجوزي

المملكة العربية السعودية، الدمام - شارع ابن خلدون - ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٨٩ - ٨٤٦٧٥٩٣،
ص.ب: ١٩٨٢ - الرمز البريدي: ٣١٤٦١ فاكس: ٨٤١٢١٠٠ - الرياض - ت: ٤٢٦٦٣٣٩ - الإحساء - الهفوف
- شارع الجامعة - ت: ٥٨٨٣١٢٢ - جدة - ت: ٦٥١٦٥٤٩ - ٦٨١٣٧٠٦ - بيروت - هاتف: ٠٣/٨٩٩٦٠٠
- تلكس: ٠١/٦٤١٨٠١ - القاهرة - ج.م.ع - محمول: ٠١٠٦٨٢٣٧٨٣ - تلفاكس: ٠٢٢٥٦١٤٧٣
البريد الإلكتروني: aljawzi@hotmail.com - www.jwzi.com

www.rahmah.de

بسم الله الرحمن الرحيم

www.rahmah.de

تقديم بقلم فضيلة الشيخ
عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين

الحمد لله وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى ورضي الله عن من اتبع سبيلهم واقتفى.

أما بعد فقد قرأت هذا الشرح الذي هذبه ورتبه الشيخ عبد الآخر حماد الغنيمي وعمل هذا العمل تسهيلاً لشرح الطحاوية الذي شرحه ابن أبي العز الأذرعي الحنفي رحمه الله وقد أحسن الشيخ عبد الآخرّ في الترتيب والتبويب والتقسيم حيث إن الطحاوي رحمه الله وقع في كلامه شيء من التكرار وتفرق بعض المواضع التي يحسن جمعها فتبعه الشارح وشرحها في مواضع ذكرها فحصل من ذلك تكرار وكثرة إحالات مما يحير الطالب بكثرة التتبع فلعله بعد هذا الترتيب يجد بغيته ويسهل عليه تناول البحث بسهولة ولقد اختصره المرتب وحذف منه أشياء فيها إطالة أو نوع تكرار وأضاف إلى ذلك تعليقات مفيدة وتخريجات للأحاديث والآثار مع الاختصار وكل ذلك خدمة لهذا الشرح المفيد الذي لا يحيد عن الحق ويؤيد مذهب السلف وأهل السنة ويرد على المبتدعة ولو كثروا وتمكنوا في كثير من البلاد فإن العبرة بالحق والدليل ولو كره وتركه أكثر الناس ثم إن هذا الشرح مقتطف غالباً من كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وكتب ابن القيم رحمهما الله تعالى وكان من الأحسن مقابلة نقوله وكلامه الذي أورده لهما بدون عزو بأصله من كتبهما وكذا ما نقله من كتب السلف المتقدمين ليتم بذلك تصحيح العبارات والسلامة من الأخطاء التي قد تغير المعنى ولعل الأخ المرتب يراجعه مرة أخرى ويبين مواضع تلك

www.rahmah.de

النقول من كتب الشيخين وغيرهما، والله المسؤول أن يجزل الثواب والأجر للمؤلف والشارح والمرتب وأن ينفع به المسلمين وأن يرد ضالهم إلى الحق رداً جميلاً، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

كتبه عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين

٦/ ١٢/ ١٤١٥هـ

مقدمة الطبعة الثالثة

الحمد لله رب العالمين، أحمده سبحانه حمد الشاكرين، وأصلي وأسلم على رسوله الأمين، سيد الأولين والآخرين، وخير خلق الله أجمعين، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وأصحابه الغر الميامين، ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

فهذه هي الطبعة الثالثة من كتاب (**المنحة الإلهية في تهذيب شرح الطحاوية**)، أقدمها للقراء الكرام بعد أن نفدت طبعتاه الأولى والثانية خلال فترة وجيزة.

ولقد لقي الكتاب بفضل الله تعالى قبولاً واستحساناً كبيرين لدى كثير من العلماء وطلاب العلم، حتى إن العديد من الأساتذة الكرام في الجامعات ومعاهد العلم في المملكة العربية السعودية وغيرها، قد قرروه على طلابهم أو أوصوهم باقتنائه والرجوع إليه.

ولقد كانت سرعة نفاد نسخ الكتاب، وازدياد الطلب عليه، دافعاً قوياً للإسراع بطبعه مرة أخرى، حتى إن الناشر جزاه الله خيراً، قد عجل بطبعه الطبعة الثانية دون أن نتمكن من إعادة النظر فيه، وأما هذه الطبعة فقد يسر الله فيها إضافة تعديلات طفيفة مع تصويب للأخطاء المطبعية التي وجدناها في الطبعتين السابقتين، وفي النية أن أعيد النظر في الكتاب بصورة أشمل في طبعة تالية إن أذن لنا المولى عز وجل.

www.rahmah.de

وإني لأتقدم بالشكر الجزيل لكل من ساهم في أن يخرج هذا التهذيب بهذه الصورة الطيبة التي تليق بأصله النفيس، وأخص بالشكر فضيلة العلامة الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين لتفضله بالاطلاع على الكتاب وكتابة تقديم له، فجزاه الله عنا وعن العلم وأهله خير الجزاء، كما أشكر الإخوة الكرام في دار الصحابة ودار ابن الجوزي على ما بذلوه من جهد كريم في طبع ونشر الكتاب.

ثم إني أدعو كل أخ مسلم يجد في الكتاب مأخذاً أن يوافينا به، من أجل أخذه في الاعتبار فيما يجدُّ من الطبعات بإذن الله تعالى حتى يعم النفع ويخرج الكتاب بأحسن صورة ممكنة.

والله المسؤول أن يوفقنا جميعاً لما يحب ويرضى، وأن ينفع بهذا التهذيب كما نفع بأصله، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

عبد الآخر حماد الغنيمي

٢٩/٣/١٤١٨هـ

٣/٨/١٩٩٧م

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

وبعد..

فلا يخفى أن علم العقيدة هو أشرف علوم الدين إذ به يعرف العبد ربه وما يجب عليه نحو خالقه ومولاه، وبصحة العقيدة تصح الأعمال وتقبل عند الله عز وجل.

والعقيدة الحقة هي ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه الذين هم خير الأمة بعد رسول الله ﷺ.

غير أن سنة الله في خلقه كان لا بد لها من أن تأخذ مسارها فحدث ما أخبر به الرسول ﷺ من افتراق هذه الأمة فرقاً وأحزاباً[1] وبقي أهل السنة والجماعة على منهج السلف ينافحون عن العقيدة الحقة وينشرون التوحيد الخالص ويحاربون أهل البدع والأهواء.

(١) انظر تخريجه ص ٣٤٨ من هذا الكتاب.

www.rahmah.de

وكان من هؤلاء الإمام أبو جعفر الطحاوي رحمه الله صاحب متن العقيدة المعروف باسمه حيث أثبت رحمه الله مختصراً لعقيدة أهل السنة والجماعة مبيناً فيه ما يجب على المسلم اعتقاده من الحق، محذراً من أقوال أهل البدع والفرق الضالة.

وقد شرح هذا المتن غير واحد إلا أن أحسن تلك الشروح وأصحها منهجاً هو شرح الإمام ابن أبي العز الحنفي رحمه الله الذي نفع الله به المسلمين خصوصاً في هذه العصور المتأخرة التي بليت فيها الأمة الإسلامية بالبعد عن دينها وشرعة ربها.

ثم إن الله امتنّ على أمة الإسلام في العقود الأخيرة بصحوة عمت كثيراً من بلاد الإسلام فهبّ شباب الإسلام راجعين إلى كتاب ربهم وسنة نبيهم، وكان من فضل الله على هذه الصحوة أن رجالاتها في جملتهم يعتقدون عقيدة أهل السنة والجماعة ويرفضون ما عداها من عقائد أهل البدع والفرق الضالة.

ومن هنا زادت أهمية مثل هذا الشرح النفيس فاهتم به أهل العلم وطبع عدة طبعات.

بيد أن الكتاب على نفاسته وصحة ما فيه لم يخلُ من أمور قد تُصعّب على القارىء العادي أو الطالب المبتدىء دراسته والاستفادة الكاملة منه، ومن أهم تلك الأمور أنه لم يرتب ترتيباً منهجياً يعين القارىء على معرفة أبواب علم العقيدة وتقسيماته، وعذر الشارح في ذلك أنه سار على نفس ترتيب المتن الذي وضعه الطحاوي رحمه الله، والطحاوي رحمه الله لم يلتزم ترتيباً معيناً في متنه بل إنه قد يتناول الموضوع الواحد في مواطن متفرقة من المتن فيترك الموضوع إلى موضوع آخر ثم يعود إلى الموضوع الأول مرة أخرى وهكذا.

وقد أشار إلى ذلك الشارح رحمه الله ثم قال: «وأحسن ما يرتب عليه كتاب أصول الدين ترتيب جواب النبي ﷺ لجبريل عليه السلام حين سأله عن الإيمان فقال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر

والقدر»[1] الحديث. فيبدأ بالكلام على التوحيد والصفات وما يتعلق بذلك ثم بالكلام على الملائكة ثم وثم إلى آخره»[2] ا.هـ.

ثم إن الكتاب لم يخلُ من بعض المباحث الفلسفية والاستطرادات الكلامية التي ربما اضطر الشارح إليها في رده على أهل الكلام، ولكننا لا نرى لها فائدة كبيرة في مثل عصرنا هذا.

ومن هنا كان العزم على القيام بهذا الجهد المتواضع لتقريب هذ الشرح النفيس بتهذيبه وإعادة ترتيبه لعل ذلك ييسّر للقارىء الاستفادة منه بأقصى درجة ممكنة.

وأسأل الله سبحانه أن يتقبل عملي هذا، وأن يجعله خالصاً لوجهه، وأن ينفع به.. آمين.

وكتبه

عبد الآخر حماد الغنيمي

في يوم الجمعة

٩ من جمادى الأولى سنة ١٤١٥هـ.

الموافق ١٤ من أكتوبر سنة ١٩٩٤م

(١) انظر تخريجه ص ١٤٥.

(٢) شرح الطحاوية لابن أبي العز ص ٦٨٩. ط. مؤسسة الرسالة تحقيق الدكتور التركي، والشيخ الأرناؤوط.

www.rahmah.de

الأصل الذي اعتمدت عليه

قد اعتمدت في هذا التهذيب على المطبوعة التي حققها وعلق عليها وخرج أحاديثها الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، والشيخ شعيب الأرناؤوط، وهي التي نشرتها مؤسسة الرسالة سنة١٤١٢هـ. الطبعة الرابعة، وذلك لما تمتاز به هذه الطبعة من دقة ضبط للنص، وحسن تخريج للأحاديث وكثرة الفوائد في التعليقات، وغير ذلك.

وقد قابلت هذه المطبوعة بمطبوعة المكتب الإسلامي والتي خرج أحاديثها الشيخ ناصر الدين الألباني «الطبعة التاسعة سنة ١٤٠٨ هـ» وقد استفدت من تلك المطبوعة في عدة مواضع من الشرح وربما أثبت ما فيها مما خالف الأصل غير أني لم أشر إلى ذلك لأني لست بصدد تحقيق للكتاب بل بصدد تهذيب له، وكذا قابلت المتن على ما جاء في رسالة «العقيدة الطحاوية شرح وتعليق للشيخ الألباني» وقد أثبت بعض ما جاء فيها مخالفاً للأصل في مواضع قليلة مع الإشارة إلى ذلك في الهامش، وكذلك رجعت في كثير من المواضع إلى المطبوعة التي حققها الشيخ أحمد شاكر رحمه الله، والطبعة التي بين يدي هي طبعة دار التراث بالقاهرة «بدون تاريخ» وقد استفدت منها في بعض مواضع.

عملي في هذا التهذيب

١ ـ أعدت ترتيب الكتاب على مقتضى حديث جبريل، فجمعت ما يخص كل باب من أبواب الإيمان الستة على حدة، ثم جمعت ما بقي بعد ذلك في باب سابع أسميته متفرقات.

٢ ـ حذفت من كلام الشارح ما رأيت أن الحاجة غير داعية إليه من مثل المباحث الكلامية والاستطرادات الفلسفية، والتفريعات اللغوية أو الفقهية، وما قد يوجد في كلامه من تكرار ونحوه. وكذلك اختصرت بعض الأدلة التي يذكرها الشارح من الكتاب والسنة فاكتفيت بذكر بعضها ما دام يؤدي الغرض الذي سيقت لأجله، كل ذلك مع المحافظة على أصل عبارة الشارح رحمه الله فلم أتصرف فيها إلا في مواضع قليلة، وغالبيتها كان لضرورة كالربط بين فقرات ونحوها، وربما اقتضى الأمر نقل شيء من كلام الشارح من موضع إلى موضع آخر وقد نبهت على ذلك في موضعه.

٣ ـ وضعت عناوين مناسبة لموضوعات الكتاب.

٤ ـ خرجت الأحاديث الواردة في هذا التهذيب تخريجاً مختصراً، فإن كان الحديث مثلاً في الكتب الستة أو بعضها فقد اكتفيت في الغالب بتخريجه منها، وإن كان الحديث مكرراً في أحد الكتب فإني اكتفيت بذكر موضع واحد من المواضع التي ذكر فيها وهو الأول في غالب الأحيان إلا أن تستدعي تخريجه من مواضع أخر مصلحة كأن يكون اللفظ الذي ساقه الشارح ليس في الموضع الأول، وأكثر ما يكون ذلك في صحيح البخاري، ولا يفوتني هنا أن أنبه إلى أني قد أفدت كثيراً من تخريج الأصل الذي

www.rahmah.de

اعتمدت عليه، وقد بذل المحققان في ذلك جهداً طيباً جزاهما الله خير الجزاء.

٥ ـ أما الحكم على الأحاديث الواردة في هذا التهذيب فما كان منها في الصحيحين أو أحدهما فقد اكتفيت بالعزو إليهما دليلاً على صحة الحديث، أما ما كان في غيرهما فقد ذكرت درجته مستعيناً بأقوال أهل العلم في ذلك الشأن.

وبصفة عامة فقد حرصت ألا أورد من الأحاديث التي ساقها الشارح إلا ما كان صحيحاً أو حسناً ومع ذلك فقد اضطررت إلى مخالفة هذه القاعدة في عدد قليل من الأحاديث والآثار التي رأيت الحاجة داعية إلى إثباتها مع عدم صحتها وذلك كأن يكون الشارح قد ساق الحديث لينبه على ضعفه أو غير ذلك.

٦ ـ علقت على بعض المواضع التي رأيتها تحتاج إلى تعليق من شرح لما غمض من كلام الشارح أو زيادة فائدة أو تعريف ببعض الأعلام الواردة في الكتاب أو غير ذلك.

كما أني نقلت بعض التعليقات التي رأيتها مهمة مما ذكره محققو المطبوعات الثلاث التي ذكرتها من قبل، فما نقلته عن الأصل الذي اعتمدت عليه أقول فيه: قال المحقق صفحة كذا، وما نقلته عن مطبوعة الشيخ الألباني أقول: قال الشيخ الألباني صفحة كذا، وما نقلته من مطبوعة الشيخ شاكر أقول: قال الشيخ أحمد شاكر صفحة كذا.

وكذلك فقد نقلت بعض التعليقات المهمة من تعليق الشيخ عبد العزيز بن باز على متن الطحاوية وهو من مطبوعات الرئاسة العامة لإدارات البحوث والإفتاء والدعوة والإرشاد بالمملكة السعودية عام ١٤٠٩هـ.

وكذا بعض تعليقات الشيخ ناصر الدين الألباني على متن الطحاوية في رسالة «العقيدة الطحاوية» شرح وتعليق.

٧ ـ ترجمت للمؤلف والشارح ترجمة مختصرة.

٨ ـ أثبتُّ بين يدي التهذيب متن الطحاوية بترتيبه الأصلي ورقمته، وضعت رقم كل فقرة أمامها في التهذيب وذلك بعد الرقم العام فكان لكل فقرة رقمان أولهما رقمها وفقاً لترتيبها في التهذيب والثاني وفقاً لترتيبها في الأصل.

www.rahmah.de

ترجمة الإمام الطحاوي صاحب المتن[1]

هو الإمام العلامة الحافظ أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن سلمة بن عبد الملك الأزدي الحجري المصري الطحاوي الحنفي.

ولد بطحا وهي قرية في صعيد مصر «تتبع محافظة المنيا حالياً».

وكان مولده رحمه الله سنة «٢٣٩هـ» وقيل «٢٣٧هـ» ونشأ في بيت علم وفضل فقد كان أبوه من أهل العلم وخاله هو الإمام المزني صاحب الشافعي وناشر علمه.

وقد تفقه الطحاوي على خاله المزني وسمع منه مروياته عن الشافعي.

ولما بلغ العشرين من عمره ترك مذهب الشافعي وتحول إلى مذهب أبي حنيفة، وقيل إن سبب ذلك أنه كان يرى خاله يديم النظر في كتب أبي حنيفة، وقيل بل سبب ذلك أن المزني قال له يوماً: والله لا جاء منك شيء، فغضب من ذلك وتحول إلى مذهب أبي حنيفة، فلما صنف مختصره في الفقه قال: «رحم الله أبا إبراهيم لو كان حياً لكفر عن يمينه».

ومن شيوخه غير خاله المزني القاضي أبو جعفر أحمد بن أبي عمران البغدادي، والقاضي أبو خازم عبد الحميد بن عبد العزيز البغدادي، ويونس بن عبد الأعلى المصري وغيرهم.

(١) انظر: تذكرة الحفاظ «٣/ ٨٠٩»، البداية والنهاية «١١/ ١٧٤»، لسان الميزان «١/ ٢٧٤ ـ ٢٧٦».

ومن تلاميذه أبو بكر أحمد بن محمد بن منصور، وأحمد بن القاسم بن عبد الله البغدادي المعروف بابن الخشاب الحافظ، وأبو الحسن علي بن أحمد الطحاوي «ابنه» وغيرهم.

وكان الإمام الطحاوي رحمه الله رجل علم وفضل، وجمع بين الفقه والحديث وغير ذلك من الفنون، وقد ناب في القضاء عن أبي عبد الله محمد بن عبدة قاضي مصر.

ومن مؤلفاته شرح معاني الآثار وشرح مشكل الآثار، ومختصر الطحاوي في الفقه الحنفي، وغير ذلك.

قال عنه ابن يونس: كان ثقة ثبتاً فقيهاً عاقلاً لم يخلف مثله.

وقال ابن الجوزي في المنتظم: كان ثبتاً فهماً فقيهاً عاقلاً.

وقال ابن كثير في البداية والنهاية: هو أحد الثقات الأثبات، والحفاظ الجهابذة.

توفي رحمه الله سنة ٣٢١هـ في مستهل ذي القعدة عن بضع وثمانين سنة.

www.rahmah.de

ترجمة الإمام ابن أبي العز شارح الطحاوية[1]

هو الإمام العلامة صدر الدين أبو الحسن علي بن علاء الدين علي بن محمد بن أبي العز الحنفي الأذرعي الصالحي الدمشقي.

ولد سنة ٧٣١هـ، ويغلب عَلَيّ الظن أنه ولد بدمشق لأن أباه وجدّه وأبا جده كانوا قد استوطنوا دمشق.

ونشأ رحمه الله في أسرة ذات نباهة وذكر، فقد كان أبوه قاضياً، وكذا جده كان قاضياً للقضاة.

وتتلمذ رحمه الله على الإمام الحافظ أبي الفداء عماد الدين ابن كثير كما ذكر في عدة مواضع من شرح الطحاوية.

وتولى الشارح رحمه الله التدريس بعدة مدارس بدمشق ثم تولى قضاء الحنفية بدمشق.

ومن مؤلفاته هذا الشرح النفيس، وكتاب الاتباع الذي رد فيه على من أوجب تقليد الإمام أبي حنيفة رحمه الله.

وقد امتحن رحمه الله بسبب اعتراضه على قصيدة لابن أيبك مدح فيها الرسول ﷺ لكنه وقع فيها في أخطاء كقوله: حسبي رسول الله، وغير ذلك فأوذي ابن أبي العز بسبب ذلك وحبس بالقلعة.

وتوفي رحمه الله في ذي القعدة سنة ٧٩٢هـ ودفن بسفح قاسيون.

(١) مقتبسة من ترجمته المثبتة بمقدمة الأصل الذي اعتمدنا عليه ص ٦٣ ـ ١٠٣.

متن العقيدة الطحاوية

بسم الله الرحمن الرحيم
وبه نستعين

الحمد لله رب العالمين.

قال العلامة حجة الإسلام أبو جعفر الوراق الطحاوي ـ بمصر ـ رحمه الله:

هذا ذكر بيان عقيدة أهل السنة والجماعة على مذهب فقهاء الملة: أبي حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي، وأبي يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري وأبي عبد الله محمد بن الحسن الشيباني رضوان الله عليهم أجمعين، وما يعتقدون من أصول الدين، ويدينون به رب العالمين[1].

١ ـ نقول في توحيد الله معتقدين بتوفيق الله: إن الله واحد لا شريك له.

٢ ـ ولا شيء مثله.

٣ ـ ولا شيء يعجزه.

٤ ـ ولا إله غيره.

(١) هذه المقدمة غير مثبتة بالشرح، وقد أثبتها من متن الطحاوية بشرح وتعليق الشيخ الألباني.

www.rahmah.de

٥ ـ قديمٌ بلا ابتداءٍ، دائمٌ بلا انتهاءٍ.

٦ ـ لا يفنى ولا يَبيدُ.

٧ ـ ولا يكونُ إلا ما يُريدُ.

٨ ـ لا تَبْلُغُهُ الأوهَامُ، ولا تُدركُهُ الأفهامُ.

٩ ـ ولا يشبه الأنامَ.

١٠ ـ حيٌّ لا يموتُ قيومٌ لا ينامُ.

١١ ـ خالقٌ بلا حاجةٍ، رازقٌ بلا مؤونةٍ.

١٢ ـ مميتٌ بلا مخافةٍ، باعثٌ بلا مشقةٍ.

١٣ ـ ما زال بصفاته قديماً قبل خلقِهِ، لم يزددْ بكونهم شيئاً لم يكن قبلهم من صفتِهِ، وكما كان بصفاته أزلياً، كذلك لا يزالُ عليها أبدياً.

١٤ ـ ليس منذ خلقِ الخلقِ استفاد اسمَ «الخالق»، ولا بإحداثه البرية استفادَ اسمَ «الباري».

١٥ ـ له معنى الربوبية ولا مربوبٌ، ومعنى الخالق ولا مخلوقٌ.

١٦ ـ وكما أنه محيي الموتَى بعد ما أحيا، استحق هذا الاسم قبل إحيائهم، كذلك استحق اسم الخالق قبل إنشائهم.

١٧ ـ ذلك بأنه على كل شيء قدير، وكل شيء إليه فقير، وكل أمر عليه يسير، لا يحتاج إلى شيء ﴿**ليس كمثله شيء وهو السميع البصير**﴾ [الشورى: ١١].

١٨ ـ خلق الخلق بعلمه.

١٩ ـ وقدر لهم أقداراً.

٢٠ ـ وضرب لهم آجالاً.

٢١ ـ لم يخف عليه شيء قبل أن يخلقهم، وعلم ما هم عاملون قبل أن يخلقهم.

٢٢ ـ وأمرهم بطاعته، ونهاهم عن معصيته.

٢٣ ـ وكل شيء يجري بتقديره ومشيئته، ومشيئته تنفذ، لا مشيئة للعباد إلا ما شاء لهم، فما شاء لهم كان، وما لم يشأ لم يكن.

٢٤ ـ يهدي من يشاءُ، ويعصمُ ويعافي فضلاً، ويضلُّ منْ يشاءُ، ويخذلُ ويبتلي عَدْلاً.

٢٥ ـ وكلهم يتقلَّبون في مشيئته، بين فضلِه وعدلِه.

٢٦ ـ وهو متعالٍ عن الأضدادِ والأنداد.

٢٧ ـ لا رادَّ لقضائِه، ولا معقِّب لحُكْمه، ولا غالبَ لأمْره.

٢٨ ـ آمَنَّا بذلك كُلِّه، وأيقنَّا أنَّ كلاًّ من عنده.

٢٩ ـ وإنَّ محمداً عبدُهُ المصطفى، ونبيه المجتبى، ورسولُه المرتضى.

٣٠ ـ وإنه خاتَمُ الأنبياء.

٣١ ـ وإمامُ الأتقياء.

٣٢ ـ وسيد المرسلين.

٣٣ ـ وحبيبُ ربِّ العالمين.

٣٤ ـ وكلُّ دعوى النبوَّةِ[1] بعدَهُ فغَيٌّ وهوى.

٣٥ ـ وهو المبعوث إلى عامَّة الجنِّ وكافَّة الورى، بالحق والهدى، وبالنور والضياء.

٣٦ ـ وإنَّ القرآن كلامُ الله، منه بدا بلا كيفيةٍ قولاً، وأنزلَهُ على رسولِهِ وحياً، وصدَّقَهُ المؤمنونَ على ذلك حقّاً، وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة، ليس بمخلوق ككلام البرية، فمن سَمِعَهُ فزعمَ أنَّهُ كلامُ البشرِ فقد

(١) في الأصل: «دعوة نبوة» والمثبت من متن الطحاوية بشرح وتعليق الشيخ الألباني، وانظر تعليق الشيخ أحمد شاكر على هذه الفقرة ص ١٠٢ من مطبوعته.

www.rahmah.de

كفرَ، وقد ذمَّهُ الله وعابَهُ وأوعدَهُ بسقَر، حيث قال تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ [المدثر: ٢٦]. فلمَّا أوْعَدَ اللهُ بسقر لِمَنْ قال: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٢٥]. علمنا وأيقنّا أنه قولُ خالقِ البشرِ، ولا يشبهُ قولَ البشرِ.

٣٧ ـ وَمَنْ وصفَ الله بمعنىً من معاني البشرِ، فَقَدْ كَفَرَ، فمن أبصرَ هذا اعتبرَ، وعن مثلِ قولِ الكفارِ انزجرَ، وعلم أنه بصفاتِهِ ليس كالبشرِ.

٣٨ ـ والرؤية حقٌّ لأهل الجنَّةِ، بغيرِ إحاطةٍ ولا كيفيةٍ، كما نطق به كتابُ ربِّنَا: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٣]. وتفسيرهُ على ما أراد الله تعالى وعَلِمَهُ، وكلُّ ما جاء في ذلك من الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ فهو كما قالَ، ومعناه على ما أرادَ، لا نَدْخُلُ في ذلك مُتأوِّلينَ بآرائِنا، ولا متوهمين بأهوائِنا.

٣٩ ـ فإنه ما سَلِمَ في دينه إلا من سَلَّمَ لله عَزَّ وجلَّ ولرسوله ﷺ، وردَّ عِلْمَ ما اشتَبَهَ عليه إلى عالِمِهِ.

٤٠ ـ ولا تثبُتُ قدمُ الإسلامِ إلا على ظهْرِ التسليمِ والاستسلام.

٤١ ـ فَمَنْ رامَ عِلْمَ ما حُظِرَ عنه علمُه، ولم يقنعْ بالتسليم فهمُه، حجبَهُ مرامُهُ عن خالص التوحيد، وصافي المعرفةِ، وصحيحِ الإيمان.

٤٢ ـ فيتذبذبُ بين الكفرِ والإيمانِ، والتصديقِ والتكذيبِ، والإقرارِ والإنكارِ، مُوَسْوَساً تائهاً، شاكّاً، لا مؤمناً مُصدقاً، ولا جاحداً مكذّباً.

٤٣ ـ ولا يصحُّ الإيمانُ بالرؤيةِ لأهلِ دارِ السلامِ لمن اعتبرَها منهم بوهم أو تأوّلها بفهم إذ كان تأويلُ الرؤية وتأويلُ كلِّ معنىً يضافُ إلى الربوبية ترك التأويلِ ولزوم التسليم، وعليه دينُ المسلمينَ.

٤٤ ـ ومن لم يتوقَّ النفي والتشبيهَ، زلَّ ولم يصبِ التنزيهَ.

٤٥ ـ فإنَّ ربَّنا جلَّ وعلا موصوفٌ بصفات الوحدانيةِ منعوتٌ بنعوتِ الفردانية، ليس في معناهُ أحدٌ من البرية.

٤٦ ـ وتَعَالى عَنِ الحُدُودِ والغَايَاتِ، والأركَانِ والأعضاءِ والأدَوَاتِ،

لا تحويه الجهاتُ السِّتُّ كسائر المبتدعاتِ.

٤٧ ـ والمعراجُ حقٌّ، وقد أُسْرِيَ بالنبيِّ ﷺ وعُرِجَ بشخصه في اليقظَةِ إلى السماءِ، ثم إلى حيثُ شاءَ الله من العلا، وأكرمَهُ الله بما شاءَ، وأوحى إليه ما أوحى، ﴿ما كَذَبَ الفُؤادُ ما رأى﴾ فصلى الله عليه[وسلمَ] [1] في الآخرةِ والأولى.

٤٨ ـ والحَوضُ الذي أكرمه الله تعالى به ـ غِيَاثاً لأمته ـ حقٌّ.

٤٩ ـ والشفاعةُ التي ادّخرَها لهم حقٌّ، كما رُوِيَ في الأخبار.

٥٠ ـ والميثاقُ الذي أخذَهُ الله تعالى من آدمَ وذريتِهِ حقٌّ.

٥١ ـ وقد عَلِمَ الله تعالى فيما لم يَزَلْ عددَ مَن يدخلُ الجنةَ، وعددَ من يدخلُ النارَ، جملةً واحدةً، فلا يُزاد في ذلك العدد ولا يَنقصُ منه، وكذلك أفعالهم فيما عَلِمَ منهم أن يفعلوه.

٥٢ ـ وكُلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلِقَ لهُ، والأعمالُ بالخواتيمِ، والسعيدُ من سَعِدَ بقضاء الله، والشقيُّ من شَقِيَ بقضاء الله.

٥٣ ـ وأصلُ القَدَرِ سِرُّ الله تعالى في خلقِهِ، لم يَطَّلِعْ على ذلك ملكٌ مقرَّبٌ ولا نبيٌّ مرسلٌ، والتعمقُ والنظرُ في ذلك ذريعةُ الخذلان، وسُلَّمُ الحِرمانِ، ودرجةُ الطغيانِ، فالحذرَ كُلَّ الحذرِ من ذلكَ نظراً وفكراً ووسْوَسَةً، فإن الله تعالى طوى عِلمَ القَدَرِ عن أنامِه، ونهاهمْ عن مَرَامِه، كما قال تعالى في كتابه: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]. فمن سألَ: لِمَ فعلَ؟ردَّ حُكمَ الكتاب، ومَنْ ردَّ حُكمَ الكتاب كان من الكافرينَ.

٥٤ ـ فهذا جملةُ ما يَحْتاجُ إليه من هُوَ مُنَوَّرٌ قلبُه من أولياءِ الله تعالى، وهي درجة الراسخين في العلم، لأن العلم علمان: علمٌ في الخلق موجودٌ، وعلمٌ في الخلقِ مفقودٌ، فإنكار العِلمِ الموجود كفرٌ، وادّعاءُ العلم المفقود كفرٌ، ولا يَثبتُ الإيمانُ إلا بقبول العلمِ الموجود، وتركِ طلبِ العلمِ المفقود.

---

(١) الزيادة من متن الطحاوية بشرح وتعليق الشيخ الألباني.

www.rahmah.de

٥٥ ـ ونؤمنُ باللَّوحِ والقلمِ وبجميعِ ما فيه قد رُقِمَ.

٥٦ ـ فلو اجتمعَ الخلقُ كلُّهم على شيء كتبَهُ الله تعالى فيه أنه كائنٌ، ليجعلوه غير كائن لم يقدروا عليه. ولو اجتمعوا كلُّهم على شيء كتبه الله تعالى فيه أنه غير كائن ليجعلوه كائناً لم يقدروا عليه، جفَّ القلمُ بما هو كائنٌ إلى يوم القيامةِ.

٥٧ ـ وما أخطأ العبدَ لم يكنْ ليصيبَه، وما أصابَهُ لم يكنْ ليُخطِئَهُ.

٥٨ ـ وعلى العبد أن يعلمَ أنَّ الله قد سبقَ علمهُ في كلِّ كائنٍ من خلقهِ، فقدَّرَ ذلك تقديراً محكماً مبرماً، ليس فيه ناقضٌ ولا مُعقبٌ، ولا مُزيلٌ ولا مُغيرٌ، ولا محول، ولا ناقصٌ ولا زائدٌ من خلقه في سماواته وأرضه.

٥٩ ـ وذلك من عَقْدِ الإيمان، وأصول المعرفةِ والاعترافِ بتوحيدِ الله تعالى وربوبيتهِ، كما قال في كتابه ﴿وخَلَقَ كلَّ شيءٍ فقدَّرَهُ تقديراً﴾ [الفرقان: ٢] وقال تعالى: ﴿وكان أمرُ الله قدراً مقدوراً﴾ [الأحزاب: ٣٨].

٦٠ ـ فويل لمن صار لله تعالى في القدر خصيماً، وأحضرَ للنظر فيه قلباً سقيماً[1]، لقد التمس بوهمه في فحص الغيب سراً كتيماً، وعاد بما قال فيه أفَّاكاً أثيماً.

٦١ ـ والعرشُ والكرسيُّ حقٌّ.

٦٢ ـ وهو مستغنٍ عن العَرشِ وما دونَهُ، محيط بكل شيء وفوقه، وقد أعجزَ عن الإحاطة خلقَهُ.

٦٣ ـ ونقولُ: إن الله اتخذَ إبراهيمَ خليلاً. وكَلَّمَ موسى تكليماً، إيماناً وتصديقاً وتسليماً.

(١) جاءت هذه العبارة في الأصل هكذا: «فويل لمن ضاع له في القدر قلباً سقيماً ـ وفي نسخة ـ فويل لمن صار قلبه في القدر قلباً سقيماً» والمثبت من متن الطحاوية شرح وتعليق الشيخ الألباني، وانظر تعليق الشيخ أحمد شاكر على هذه الفقرة ص ٢١٢ من مطبوعته.

٦٤ ـ ونؤمن بالملائكة والنبيين، والكتب المنزلةِ على المرسلينَ، ونشهدُ أنهم كانوا على الحقِّ المبين.

٦٥ ـ ونسمي أهلَ قبلتِنا مسلمينَ مؤمنين، ما داموا بما جاء به النبيُّ ﷺ معترفينَ، وله بكلِّ ما قال وأخبر مصدقينَ.

٦٦ ـ ولا نخوضُ في الله، ولا نماري في دين الله.

٦٧ ـ ولا نجادلُ في القرآنِ، ونَشهدُ أنه كلامُ ربِّ العالمين، نزل به الروحُ الأمينُ، فعلَّمَهُ سيدَ المرسَلينَ محمداً صلى الله عليه وعلى آله أجمعين، وهو كلامُ الله تعالى، لا يساويهِ شيءٌ من كلامِ المخلوقينَ، ولا نقولُ بخلقِهِ، ولا نخالفُ جماعةَ المسلمينَ.

٦٨ ـ ولا نكفِّرُ أحداً من أهل القبلةِ بذنبٍ ما لم يستحلَّهُ، ولا نقولُ لا يضرُّ مع الإيمانِ ذنبٌ لمن عَمِلَهُ.

٦٩ ـ ونرجو للمحسنينَ من المؤمنين أن يعفوَ عنهم ويدخلَهم الجنةَ برحمتِه ولا نأمنُ عليهم، ولا نشهدُ لهم بالجنةِ، ونستغفرُ لمسيئهم، ونخافُ عليهم ولا نُقَنِّطُهُمْ.

٧٠ ـ والأمنُ والإياسُ يَنقلانِ عن ملةِ الإسلامِ، وسبيل الحقِّ بينهما لأهل القبلة.

٧١ ـ ولا يخرجُ العبدُ من الإيمانِ إلا بجحودِ ما أدخلَه فيه.

٧٢ ـ والإيمانُ: هو الإقرارُ باللِّسَانِ، والتَّصديق بالجنانِ.

٧٣ ـ وجميعُ ما صحَّ عن رسولِ الله ﷺ من الشرعِ والبيانِ كُلُّهُ حَقٌّ.

٧٤ ـ والإيمانُ واحدٌ، وأهلُه في أصلِه سواءٌ[1] والتفاضلُ بينهم بالخشيةِ والتُّقى، ومخالفةِ الهَوى، ومُلازمةِ الأولى.

٧٥ ـ والمؤمنون كُلُّهم أولياءُ الرحمنِ.

(١) في العبارة إبهام انظر بيانه في ص ١٣١ هامش(١).

www.rahmah.de

٧٦ ـ وأكرَمُهُمْ عندَ الله أطوعُهُمْ وأتبعهُم للقرآن.

٧٧ ـ والإيمانُ: هو الإيمانُ بالله، وملائكتِه، وكتبِه، ورسلِه، واليومِ الآخرِ، والقَدَرِ، خيرِه وشرِّه، وحلوِه ومرِّه، من الله تعالى.

٧٨ ـ ونحن مؤمنون بذلك كلِّهِ، لا نُفرقُ بين أحدٍ من رُسلِه، ونصدقُهُم كلَّهم على ما جاؤُوا به.

٧٩ ـ وأهلُ الكبائر من أمّةِ محمدٍ ﷺ في النارِ لا يُخلَّدون، إذا ماتوا وهم مُوَحِّدون، وإن لم يكونوا تائبينَ بعد أن لَقوا الله عارفين، وهم في مشيئتِهِ وحُكمِه، إن شاءَ غَفَرَ لهم وعفا عنهم بفضله، كما ذكر عز وجل في كتابه: ﴿ويغفرُ ما دون ذلك لمن يشاء﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦]. وإن شاءَ عَذَّبهم في النارِ بعدله، ثم يُخرجهُم منها برحمتِهِ وشفاعَةِ الشافعينَ من أهلِ طاعتِهِ، ثم يبعثُهُم إلى جنتِهِ، وذلك بأن الله تعالى مولى أهلِ معرفتِه ولم يجعلْهم في الدارَينِ كأهلِ نَكرَتِه، الذين خَابُوا من هِدايتِهِ ولم ينالوا من وِلايتِهِ، اللهمَّ يا وليَّ الإسلام وأهلِهِ، مسِّكْنا بالإسلامِ حتى نلقاكَ به.

٨٠ ـ ونرى الصلاة خَلْفَ كُلِّ بَرٍّ وفاجرٍ من أهلِ القبلةِ، وعَلى من ماتَ منهم.

٨١ ـ ولا نُنزلُ أحداً منهم جنةً ولا ناراً.

٨٢ ـ ولا نشهدُ عليهم بكفر ولا بشرك ولا بنفاقٍ، ما لم يظهرْ منهم شيءٌ من ذلكَ، ونَذَرُ سرائرَهم إلى الله تعالى.

٨٣ ـ ولا نرى السَّيفَ على أحدٍ من أمّةِ محمدٍ ﷺ إلا من وجبَ عليه السيفُ.

٨٤ ـ ولا نرى الخروجَ على أئمتِنا وولاةِ أمورِنا، وإن جارُوا، ولا ندعُو عليهم، ولا نَنْزِعُ يداً من طاعَتِهم، ونرى طاعَتهم من طاعة الله عز وجل فريضةً، ما لم يَأمُروا بمعصيةٍ، وندعو لهم بالصلاحِ والمعافاةِ.

٨٥ ـ وَنَتَّبِعُ السنةَ والجماعةَ، ونجتنبُ الشذُوذَ، والخِلافَ والفُرقةَ.

٨٦ ـ ونحبُّ أهلَ العدلِ والأمانةِ، ونُبْغِضُ أهلَ الجَوْرِ والخيانةِ.

٨٧ ـ ونقولُ الله أعلَمُ، فيما اشتَبَهَ علينا عِلْمُهُ.

٨٨ ـ ونرى المسحَ على الخُفَّينِ، في السفرِ والحضرِ، كما جاءَ في الأثرِ.

٨٩ ـ والحجُّ والجهادُ ماضيانِ مع أولي الأمرِ من المسلمين بَرِّهم وفاجِرِهم إلى قيام الساعةِ، لا يُبْطِلُهُمَا شيءٌ ولا يَنْقُضُهُمَا.

٩٠ ـ ونؤمنُ بالكرامِ الكاتبينَ، فإنَّ الله قد جعلهم علينا حافظين.

٩١ ـ ونؤمنُ بمَلَكِ الموتِ، المُوكَّلِ بقبضِ أرواحِ العالمينَ.

٩٢ ـ وبعذابِ القبرِ لمن كان له أهلاً، وسؤالِ منكرٍ ونكيرٍ في قبرِه عن ربِّه ودينِهِ، على ما جاءتْ به الأخْبارُ عن رسول الله ﷺ، وعن الصحابةِ رضوانُ اللهِ عليهم. والقبرُ روضةٌ من رياضِ الجنةِ، أو حُفْرة من حُفَرِ النيرانِ.

٩٣ ـ ونؤمنُ بالبعثِ وجزاءِ الأعمالِ يومَ القيامةِ، والعرضِ والحسابِ، وقراءةِ الكتابِ، والثوابِ والعقابِ، والصِّراطِ والميزانِ.

٩٤ ـ والجنةُ والنارُ مخلوقتانِ لا تَفْنيانِ أبداً ولا تبيدان، فإنَّ الله تعالى خلق الجنةَ والنارَ قبل الخلقِ، وخلقَ لهما أهلاً.

٩٥ ـ فمن شاءَ منهم إلى الجنةِ فضلاً منه، ومن شاء منهم إلى النارِ عدلاً منه، وكلٌّ يعملُ لما قد فُرِغَ لَهُ، وصائرٌ إلى ما خُلِقَ لَهُ، والخيرُ والشرُّ مُقَدَّرانِ على العباد.

٩٦ ـ والاستطاعةُ التي يجبُ بها الفعلُ، من نحوِ التوفيق الذي لا يوصَفُ المخلوقُ به تكون مع الفعل، وأمّا الاستطاعةُ من جهة الصحةِ والوُسعِ، والتمكن وسلامةِ الآلاتِ فهي قبلَ الفعلِ، وبها يتعلقُ الخطابُ، وهو كما قال تعالى: ﴿لا يُكلف الله نفساً إلاَّ وسعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

٩٧ ـ وأفعالُ العبادِ خلقُ الله، وكسبٌ من العبادِ.

www.rahmah.de

٩٨ ـ ولم يكلفْهُم الله تعالى ما لا يُطيقونَ، ولا يطيقونَ إلا ما كلَّفَهُم وهو تفسيرُ: «لا حول ولا قوة إلا بالله»، نقولُ: لا حيلة لأحدٍ ولا تحول لأحدٍ، ولا حركة لأحدٍ عن معصيةِ الله إلا بمعونةِ اللهِ، ولا قوةَ لأحدٍ على إقامةِ طاعةِ اللهِ والثباتِ عليها إلا بتوفيق الله تعالى.

٩٩ ـ وكلُّ شيء يجري بمَشيئةِ الله تعالى وعلمِهِ وقضائِهِ وقَدرِهِ، غلبتْ مشيئته المشيئاتِ كُلَّها، وغلبَ قضاؤه الحيلَ كلَّها. يفعلُ ما يشاء، وهو غيرُ ظالمٍ أبداً ﴿لا يُسْأَلُ عمّا يفعلُ وهم يُسْأَلونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

١٠٠ ـ وفي دعاءِ الأحياءِ وصدقاتِهم منفعةٌ للأمواتِ.

١٠١ ـ والله تعالى يستجيبُ الدعواتِ، ويقضي الحاجاتِ.

١٠٢ ـ ويملكُ كلَّ شيءٍ، ولا يملكُهُ شيءٌ، ولا غِنى عن الله تعالى طرفةَ عينٍ، ومن استغنى عن اللهِ طرفةَ عينٍ، فقد كَفَرَ وصارَ من أهلِ الحَيْنِ.

١٠٣ ـ واللهُ يَغْضَبُ ويرضى، لا كأحدٍ من الوَرَى.

١٠٤ ـ ونحبُّ أصحابَ رسولِ اللهِ ﷺ، ولا نُفْرِطُ في حبِّ أحدٍ منهم، ولا نتبرّأ من أحدٍ منهم، ونُبْغِضُ من يبغضُهُم، وبغيرِ الخيرِ يذكرهُم، ولا نذكرُهُم إلا بخيرٍ، وحبُّهم دينٌ وإيمانٌ وإحسانٌ، وبغضُهُم كفرٌ ونفاقٌ وطغيانٌ.

١٠٥ ـ ونُثبِتُ الخلافةَ بعدَ رسولِ اللهِ ﷺ أوّلاً لأبي بكر الصديق رضي الله عنه، تفضيلاً له وتقديماً على جميعِ الأمّةِ.

١٠٦ ـ ثم لعمرَ بن الخطابِ رضي الله عنه.

١٠٧ ـ ثم لعثمان رضي الله عنه.

١٠٨ ـ ثم لعلي بن أبي طالبٍ رضي الله عنه.

١٠٩ ـ وهم الخلفاءُ الراشدونَ، والأئمةُ المهديون.

١١٠ ـ وأنَّ العشرةَ الذين سمّاهُم رسولُ الله ﷺ وبشّرهم بالجنةِ، نشهدُ لهم بالجنةِ على ما شَهِدَ لهم رسولُ الله ﷺ وقوله الحق وهم: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن بن عوف

وأبو عبيدة بن الجراح وهو أمين هذه الأمة رضي الله عنهم أجمعين.

١١١ ـ ومَنْ أحسَنَ القولَ في أصحابِ رسول الله ﷺ، وأزواجِهِ الطاهراتِ من كلِّ دَنَسٍ، وذرياتِه المقدسينَ من كلِّ رجسٍ، فقد برئَ من النفاقِ.

١١٢ ـ وعلماءُ السلفِ من السابقينَ، ومَنْ بعدهم من التابعينَ أهل الخيرِ والأثرِ، وأهلُ الفقهِ والنظرِ، لا يُذْكرونَ إلا بالجميل، ومن ذكرهم بسُوءٍ فهو على غير السَّبيل.

١١٣ ـ ولا نفضّلُ أحداً من الأولياءِ على أحدٍ من الأنبياء عليهم السلام ونقول: نبيٌّ واحدٌ أفضلُ من جميع الأولياء.

١١٤ ـ ونؤمنُ بما جاء مِنْ كَرَاماتِهم، وصحَّ عن الثقاتِ من رواياتهم.

١١٥ ـ ونؤمنُ بأشراطِ الساعةِ: من خروجِ الدجالِ، ونزولِ عيسى بن مريمَ عليه السلامُ من السماءِ، ونؤمنُ بطلوعِ الشمسِ من مغربها، وخروجِ دابَّةِ الأرضِ من موضِعِها.

١١٦ ـ ولا نُصَدِّقُ كاهناً ولا عَرّافاً، ولا من يَدَّعي شيئاً يخالف الكتابَ والسنةَ وإجماعَ الأمّةِ.

١١٧ ـ ونرى الجماعةَ حقّاً وصواباً، والفُرقةَ زيغاً وعذاباً.

١١٨ ـ ودينُ الله في الأرضِ والسماءِ واحدٌ، وهو دينُ الإسلامِ، قال الله تعالى: ﴿إنَّ الدينَ عند الله الإسلامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال تعالى: ﴿ورَضِيتُ لَكُمُ الإسْلامَ دِيناً﴾ [المائدة: ٣]. وهو بين الغُلُوِّ والتقصير، وبين التشبيهِ والتعطيلِ، وبين الجبر والقدر، وبين الأمنِ والإياسِ.

١١٩ ـ فهذا ديننا واعتقادُنا ظاهراً وباطناً، ونحن بُرآءُ إلى الله تعالى من كلِّ من خَالفَ الذي ذكرناهُ وبيناه. ونسألُ الله تعالى أن يُثَبِّتَنا على الإيمان، ويختمَ لنا به، ويعصمَنا من الأهواء المختلفةِ، والآراءِ المتفرقةِ، والمذاهبِ الرديةِ، مثل المشبِّهة، والمعتزلةِ، والجهميةِ، والجبريةِ، والقدريةِ وغيرهم، من الذين خالفوا الجماعةَ، وحالفوا الضلالةَ، ونحن منهم بَراءٌ، وهم عندنا ضُلاّلٌ وأرديةٌ. وبالله العصمةُ والتوفيق.

www.rahmah.de

من مقدمة الشارح

بسم الله الرحمن الرحيم
حسبي الله ونعم الوكيل

الحمد لله، نستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد: فإنه لما كان علم أصول الدين أشرف العلوم، إذ شرف العلم بشرف المعلوم، وهو الفقه الأكبر بالنسبة إلى فقه الفروع، وحاجة العباد إليه فوق كل حاجة لأنه لا حياة للقلوب ولا نعيم ولا طمأنينة إلا بأن تعرف ربها ومعبودها، ويكون مع ذلك أحب إليها مما سواه، ويكون سعيها فيما يقربها إليه دون غيره.

ومن المحال أن تستقل العقول بمعرفة ذلك وإدراكه على التفصيل، فاقتضت رحمة العزيز الرحيم أن بعث الرسل به معرّفين وإليه داعين، ولمن أجابهم مبشرين، ولمن خالفهم منذرين، وجعل مفتاح دعوتهم، وزبدة رسالتهم، معرفة المعبود سبحانه بأسمائه وصفاته وأفعاله، إذ على هذه المعرفة تبنى مطالب الرسالة كلها من أولها إلى آخرها.

ثم يتبع ذلك أصلان عظيمان:

أحدهما: تعريف الطريق الموصل إليه، وهي شريعته المتضمنة لأمره ونهيه.

والثاني: تعريف السالكين ما لهم بعد الوصول إليه من النعيم المقيم. فأعرف الناس بالله عز وجل أتبعهم للطريق الموصل إليه، وأعرفهم بحال السالكين عند القدوم عليه ولهذا سمى الله ما أنزله على رسوله روحاً لتوقف الحياة الحقيقية عليه، ونوراً لتوقف الهداية عليه.

فقال الله تعالى: ﴿يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده﴾ [المؤمن: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا﴾ [الشورى: ٥٢].

ولا ريب أنه يجب على كل أحد أن يؤمن بما جاء به الرسول إيماناً عاماً مجملاً، ولا ريب أن معرفة ما جاء به الرسول على التفصيل فرض على الكفاية.

وأما ما يجب على أعيانهم، فهذا يتنوع بتنوع قُدَرهم، وحاجتهم ومعرفتهم، وما أمر به أعيانهم، ولا يجب على العاجز عن سماع بعض العلم أو عن فهم دقيقه ما يجب على القادر على ذلك. ويجب على من سمع النصوص وفهمها من علم التفصيل ما لا يجب على من لم يسمعها، ويجب على المفتي والمحدث والحاكم ما لا يجب على من ليس كذلك.

ولا يقبل الله من الأولين والآخرين ديناً يدينونه، إلا أن يكون موافقاً لدينه الذي شرعه على ألسنة رسله عليهم السلام.

ومضى على ما كان عليه الرسول ﷺ خير القرون، وهم الصحابة والتابعون لهم بإحسان، يوصي به الأول الآخر، ويقتدي فيه اللاحق بالسابق، وهم في ذلك كله بنبيهم محمد ﷺ مقتدون، وعلى منهاجه سالكون، كما قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني﴾ [يوسف: ١٠٨].

ثم خلف من بعدهم خلف اتبعوا أهواءهم، وافترقوا، فأقام الله لهذه الأمة من يحفظ عليها أصول دينها، كما أخبر الصادق ﷺ بقوله: «لا تزال

www.rahmah.de

طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم»[1].

وممن قام بهذا الحق من علماء المسلمين: الإمام أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الأزدي الطحاوي، تغمده الله برحمته.

فأخبر ـ رحمه الله ـ عما كان عليه السلف، ونقل عن الإمام أبي حنيفة النعمان وصاحبيه أبي يوسف، ومحمد بن الحسن ـ رضي الله عنهم ـ ما كانوا يعتقدونه من أصول الدين.

وقد شرح هذه العقيدة غير واحد من العلماء، ولكن رأيت بعض

(١) أخرجه بهذا اللفظ مسلم (١٩٢٠) والترمذي (٢٢٢٩) وابن ماجه (١٠) من حديث ثوبان ـ رضي الله عنه ـ وفي الباب عن المغيرة بن شعبة، ومعاوية، وجابر بن سمرة، وجابر بن عبد الله، وغيرهم.

وقد قال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ في بيان تلك الطائفة: إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدري من هم. ونقل النووي عن القاضي عياض قوله: إنما أراد أحمد أهل السنة والجماعة ومن يعتقدون مذهب أهل الحديث. وقال النووي: ويحتمل أن هذه الطائفة مفرقة بين أنواع المؤمنين منهم شجعان مقاتلون، ومنهم فقهاء، ومنهم محدثون، ومنهم زهاد وآمرون بالمعروف وناهون عن المنكر، ومنهم أنواع أخرى من أهل الخير. (انظر شرح مسلم للنووي ١٣/ ٦٦، ٦٧) وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن «الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة هي أهل السنة والجماعة» (انظر مجموع الفتاوى ٣/ ١٢٩).

قلت: وفي بعض ألفاظ الحديث «لن يبرح هذا الدين قائماً يقاتل عليه عصابة من المسلمين حتى تقوم الساعة» مسلم «١٩٢٢» من حديث جابر بن سمرة. وفي لفظ «لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين» مسلم «١٥٦»، «١٩٢٣» من حديث جابر بن عبد الله.

وهذا يقتضي ـ والله أعلم ـ أن المجاهدين في سبيل الله هم من أولى الناس بالدخول في تلك الطائفة ولذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية عند حديثه عن التتار ووجوب قتالهم: وأما الطائفة بالشام ومصر ونحوهما فهم في هذا الوقت المقاتلون عن دين الإسلام، وهم من أحق الناس دخولاً في الطائفة المنصورة التي ذكرها النبي ﷺ بقوله في الأحاديث المستفيضة عنه «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى تقوم الساعة» (مجموع الفتاوى ٢٨/ ٥٣١).

الشارحين قد أصغى إلى أهل الكلام المذموم، واستمد منهم، وتكلم بعباراتهم.

وقد أحببت أن أشرحها سالكاً طريق السلف في عباراتهم، وأنسج على منوالهم، متطفلاً عليهم، لعلي أن أنظم في سلكهم، وأدخل في عدادهم، وأحشر في زمرتهم ﴿مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً﴾ [النساء: ٦٩].

www.rahmah.de

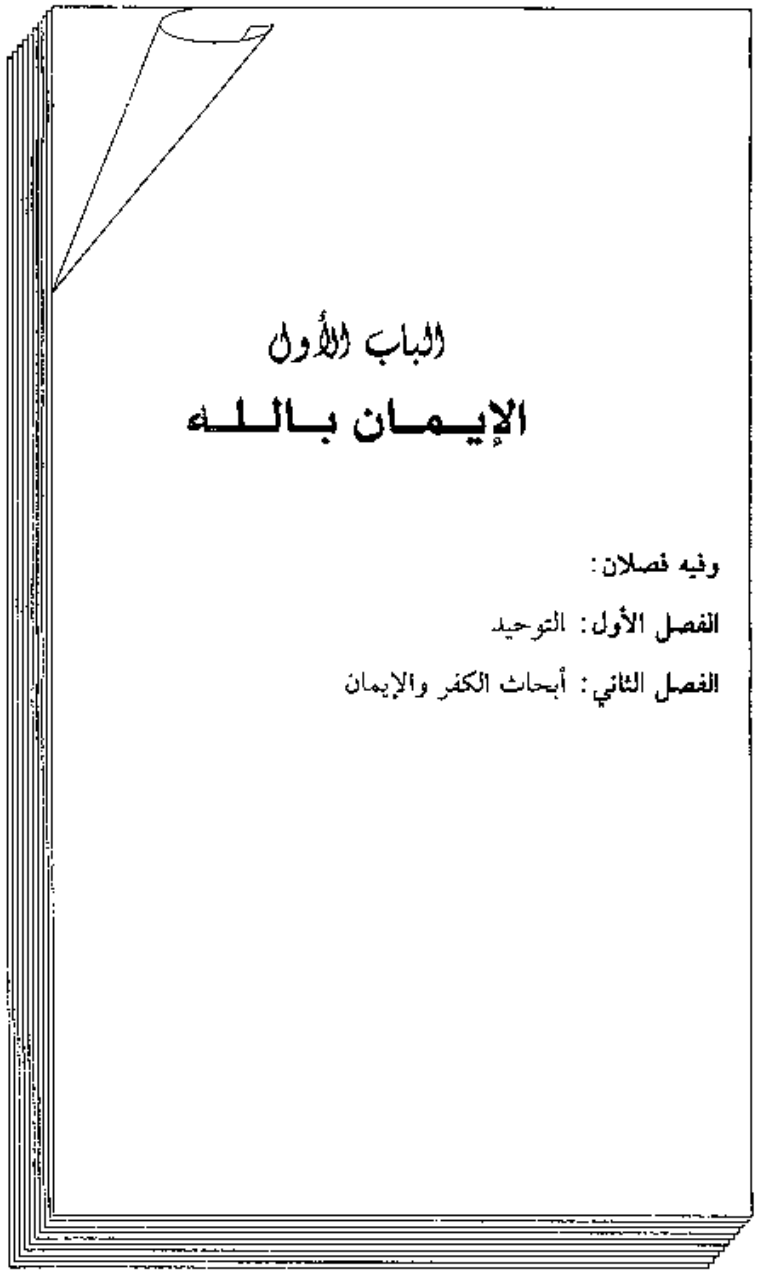

الباب الأول

الإيـمـان بـالـلـه

وفيه فصلان:

الفصل الأول: التوحيد

الفصل الثاني: أبحاث الكفر والإيمان

www.rahmah.de

الفصل الأول

التوحيد

ويتضمن أنواع التوحيد:

النوع الأول: توحيد الربوبية.

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: معنى توحيد الربوبية.

المبحث الثاني: الميثاق.

المبحث الثالث: بعض معاني الربوبية.

المبحث الرابع: سبق ربوبيته سبحانه.

النوع الثاني: توحيد الألوهية.

وفيه خمسة مباحث:

المبحث الأول: بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية.

المبحث الثاني: طرق القرآن في تقرير توحيد الألوهية.

المبحث الثالث: الدعاء.

المبحث الرابع: التوسل.

المبحث الخامس: التنبيه على بعض أمور الشرك.

النوع الثالث: توحيد الأسماء والصفات.

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: منهج أهل السنة في توحيد الصفات.

المبحث الثاني: ذكر بعض صفات الله تعالى.

www.rahmah.de

الفصل الأول: التوحيد

(١ ـ ١) قوله (نقول في توحيد الله، معتقدين بتوفيق الله، إن الله واحد لا شريك له).

ش: اعلم أن التوحيد أول دعوة الرسل، وأول منازل الطريق، وأول مقام يقوم فيه السالك إلى الله ـ عز وجل ـ قال تعالى: ﴿**لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره**﴾ [الأعراف: ٥٩]. وقال هود عليه السلام لقومه: ﴿**اعبدوا الله ما لكم من إله غيره**﴾ [الأعراف: ٦٥]، وقال صالح عليه السلام لقومه: ﴿**اعبدوا الله ما لكم من إله غيره**﴾ [الأعراف: ٧٣]. وقال تعالى: ﴿**وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون**﴾ [الأنبياء: ٢٥]. وقال ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله»[(١)]. ولهذا كان الصحيح أن أول واجب يجب على المكلف شهادة أن لا إله إلا الله، فالتوحيد أول واجب، وهو آخر واجب. كما قال النبي ﷺ: «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة»[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٥) ومسلم (٢٢) من حديث ابن عمر ـ رضي الله عنه ـ وفي الباب عن أبي هريرة وأنس بن مالك، والنعمان بن بشير، وطارق بن أشيم الأشجعي، ومعاذ بن جبل ـ رضي الله عنهم أجمعين.

(٢) أخرجه أبو داود (٣١١٦) وأحمد (٥/ ٢٣٣، ٢٤٧)، والحاكم (١/ ٣٥١، ٥٠٠) من حديث معاذ بن جبل، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في إرواء الغليل (٣/ ١٥٠).

www.rahmah.de

أنواع التوحيد

ثم التوحيد الذي دعت إليه رسل الله ونزلت به كتبه نوعان:

توحيد في الإثبات والمعرفة.

وتوحيد في الطلب والقصد.

فالأول: هو إثبات حقيقة ذات الرب تعالى وصفاته وأفعاله وأسمائه، ليس كمثله شيء في ذلك كله، كما أخبر به عن نفسه، وكما أخبر رسوله ﷺ. وقد أفصح القرآن عن هذا النوع كل الإفصاح، كما في أول (الحديد) و (طه) وآخر (الحشر)، وأول (ألم تنزيل السجدة) وأول (آل عمران) وسورة (الإخلاص) بكمالها، وغير ذلك.

والثاني: وهو توحيد الطلب والقصد، مثل ما تضمنته سورة **﴿قل يا أيها الكافرون﴾** و**﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم﴾** [آل عمران: ٦٤]، وأول سورة **﴿تنزيل الكتاب﴾** وآخرها، وأول سورة (يونس) وأوسطها وآخرها، وأول سورة (الأعراف) وآخرها، وجملة سورة (الأنعام).

وغالب سور القرآن متضمنة لنوعي التوحيد، بل كل سورة في القرآن. فإن القرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته، وهو التوحيد العلمي الخبري. وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له، وخلع ما يعبد من دونه، فهو التوحيد الإرادي الطلبي. وإما أمر ونهي وإلزام بطاعته، فذلك من حقوق التوحيد ومكملاته. وإما خبر عن إكرامه لأهل توحيده، وما فعل بهم في الدنيا وما يكرمهم به في الآخرة، فهو جزاء توحيده. وإما خبر عن أهل الشرك، وما فعل بهم في الدنيا من النكال، وما يحل بهم في العقبى من العذاب فهو جزاء من خرج عن حكم التوحيد.

طريقة أخرى لبيان أقسام التوحيد

إن التوحيد يتضمن ثلاثة أنواع[١]:

أحدها: توحيد الربوبية، وبيان أن الله وحده خالق كل شيء.

والثاني: توحيد الإلهية، وهو استحقاقه سبحانه وتعالى أن يعبد وحده لا شريك له.

الثالث: الكلام في الصفات.

(١) ليس هذا التقسيم منافياً لما سبق من تقسيم التوحيد إلى نوعين اثنين فإن توحيد المعرفة والإثبات يشمل توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات فكلاهما إخبار عن الرب سبحانه وتعالى، وأما توحيد القصد والطلب فهو توحيد الإلهية. كما بيّن ذلك «شيخ الإسلام ابن تيمية»، وتلميذه «ابن القيم» وانظر «تيسير العزيز الحميد ص ٥٣».

www.rahmah.de

النوع الأول: توحيد الربوبية

المبحث الأول: معنى توحيد الربوبية

توحيد الربوبية هو الإقرار بأن الله خالق كل شيء، وأنه ليس للعالم صانعان متكافئان في الصفات والأفعال، وهذا التوحيد لم يذهب إلى نقيضه طائفة معروفة من بني آدم، بل القلوب مفطورة على الإقرار به كما قالت الرسل فيما حكى الله عنهم: ﴿**أفي الله شك فاطر السموات والأرض**﴾ [إبراهيم: ١٠]، وقال ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه»[(١)]، ولا يقال: إن معناه يولد ساذجاً لا يعرف توحيداً ولا شركاً لقوله ﷺفيما يرويه عن ربه عز وجل: «خلقت عبادي حنفاء، فاجتالتهم الشياطين»[(٢)] الحديث. وفي الحديث المتقدم ما يدل على ذلك، حيث قال: «يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه»ولم يقل: ويسلمانه.

وأشهر من عرف تجاهله وتظاهره بإنكار الصانع فرعون، وقد كان مستيقناً به في الباطن، كما قال له موسى عليه السلام: ﴿**لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر**﴾ [الإسراء: ١٠٢]، وقال تعالى عنه وعن قومه: ﴿**وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً**﴾ [النمل: ١٤].

ولم يعرف عن أحد من الطوائف أنه قال: إن العالم له صانعان

(١) أخرجه البخاري (١٣٥٨) ومسلم (٢٦٥٨) وأحمد (٢/ ٣٩٣) ومالك(١/ ٢٤١) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) رواه مسلم (٢٨٦٥) وأحمد (٤/ ١٦٢، ١٦٣، ٢٦٦) من حديث عياض بن حمار المجاشعي.

متماثلان في الصفات والأفعال، فإن الثنوية[(١)] من المجوس، والمانوية[(٢)] القائلين بالأصلين: النور والظلمة، وأن العالم صدر عنهما متفقون على أن النور خير من الظلمة، وهو الإله المحمود، وأن الظلمة شريرة مذمومة، فلم يثبتوا ربّين متماثلين.

وأما النصارى القائلون بالتثليث، فإنهم لم يثبتوا للعالم ثلاثة أرباب ينفصل بعضهم عن بعض، بل هم متفقون على أن صانع العالم واحد، ويقولون: باسم الأب والابن وروح القدس إله واحد. وقولهم في التثليث متناقض في نفسه، ولهذا كانوا مضطربين في فهمه، وفي التعبير عنه، ولا يكاد اثنان يتفقان على معنى واحد[(٣)] فإنهم يقولون: هو واحد بالذات، ثلاثة بالأقنوم! والأقانيم يفسرونها تارة بالخواص، وتارة بالصفات، وتارة بالأشخاص.

دليل التمانع عند المتكلمين

والمقصود هنا: أنه ليس في الطوائف من يثبت للعالم صانعين متماثلين، مع أن كثيراً من أهل الكلام والنظر والفلسفة تعبوا في إثبات هذا المطلوب وتقريره.

والمشهور عند أهل النظر إثباته بدليل التمانع، وهو: أنه لو كان للعالم صانعان فعند اختلافهما مثل أن يريد أحدهما تحريك جسم والآخر تسكينه،

(١) الثنوية: أصحاب الاثنين الأزليين فإنهم قالوا بأن النور والظلمة أزليان قديمان متساويان في القدم ولكنهما يختلفان في أمور منها الجوهر والطبع والفعل والحيز... «الملل والنحل ١/ ٢٤٤».

(٢) المانوية: أصحاب ماني بن فاتك الذي ظهر في زمن سابور بن أردشير، أحدث ديناً بين المجوسية والنصرانية، وكان يقول بنبوة عيسى دون نبوة موسى، زعم أن العالم مصنوع من أصلين قديمين: النور والظلمة وأنهما أزليان لم يزالا ولن يزالا. قتل ماني هذا في زمن بهرام بن هرمز بن سابور. «الملل والنحل ١/ ٢٤٤ ـ ٢٤٩».

(٣) نقل ابن القيم عن بعض العقلاء قوله: «لو اجتمع عشرة من النصارى يتكلمون في حقيقة ما هم عليه لتفرقوا عن أحد عشر مذهباً» انظر إغاثة اللهفان ٢/ ٢٧١».

www.rahmah.de

أو يريد أحدهما إحياءه والآخر إماتته: فإما أن يحصل مرادهما، أو مراد أحدهما، أو لا يحصل مراد واحد منهما. والأول ممتنع، لأنه يستلزم الجمع بين الضدين، والثالث ممتنع، لأنه يلزم خلوّ الجسم عن الحركة والسكون، وهو ممتنع، ويستلزم أيضاً عجز كل منهما، والعاجز لا يكون إلهاً، وإذا حصل مراد أحدهما دون الآخر، كان هذا هو الإله القادر، والآخر عاجزاً لا يصلح للإلهية.

وجود الشرك في بعض الربوبية

الشرك في الربوبية معلوم الامتناع عند الناس كلهم، باعتبار إثبات خالقين متماثلين في الصفات والأفعال، وإنما ذهب بعض المشركين إلى أن ثَمّ خالقاً خلق بعض العالم، كما يقول الثنوية في الظلمة وكما يقوله القدرية في أفعال الحيوان، فإن هؤلاء يثبتون أموراً محدثة بدون إحداث الله إياها، فهم مشركون في بعض الربوبية، وكثير من مشركي العرب وغيرهم قد يظن في آلهته شيئاً من نفع أو ضر، بدون أن يخلق الله ذلك.

فلما كان هذا الشرك في الربوبية موجوداً في الناس، بين القرآن بطلانه، كما في قوله تعالى: **﴿ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض﴾** [المؤمنون: ٩١].

فإن الإله الحق لا بد أن يكون خالقاً فاعلاً، فلو كان معه سبحانه إله آخر يشركه في ملكه، لكان له خلق وفعل، وحينئذ فلا يرضى تلك الشركة، بل إن قدر على قهر ذلك الشريك وتفرده بالملك والإلهية دونه فعل، وإن لم يقدر على ذلك انفرد بخلقه وذهب بذلك الخلق، وانتظام أمر العالم كله وإحكام أمره، من أدل دليل على أن مدبره إله واحد، وملك واحد، ورب واحد، لا إله للخلق غيره، ولا رب لهم سواه.

المبحث الثاني
الميثاق

(٢ ـ ٥٠) قوله: (والميثاق الذي أخذه الله تعالى من آدم وذريته حق).

ش: قال تعالى: **﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين﴾** [الأعراف: ١٧٢]. يخبر سبحانه أنه استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكهم وأنه لا إله إلا هو. وقد وردت أحاديث في أخذ الذرية من صلب آدم عليه السلام، وتمييزهم إلى أصحاب اليمين وإلى أصحاب الشمال، وفي بعضها الإشهاد عليهم بأن الله ربهم.

فمنها: ما رواه الإمام أحمد عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ قال: «إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنَعمان ـ يعني عرفة ـ، فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها، فنثرها بين يديه، ثم كلمهم قُبُلاً، ألست بربكم؟ قالوا: بلى، شهدنا.. إلى قوله. المبطلون»[1].

وروى الإمام أحمد أيضاً عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ عن النبي

(١) أخرجه أحمد ١٥/ ٢٧٢ «٩٢٧٢»، والحاكم ٢/ ٣٢٥ «٣٢٥٤»، وقال صحيح الإسناد ووافقه الذهبي، وأخرجه أيضاً البيهقي في الأسماء والصفات «٢/ ٢٥٨» وابن أبي عاصم في السنة «٢٠٢٥» وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٢٥ «١٢٥٤»، وقال: رجاله رجال الصحيح، وصححه أحمد شاكر في شرحه على المسند «٢/ ١٥١».

www.rahmah.de

ﷺ قال: «يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء، أكنت مفتدياً به؟ قال: فيقول: نعم، قال: فيقول: قد أردت منك أهون من ذلك، قد أخذت عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئاً فأبيت إلا أن تشرك بي»[1] وأخرجاه في الصحيحين أيضاً.

بيان أن الآية لا تدل على إخراج الذرية وإشهادهم

واعلم أن من المفسرين من لم يذكر سوى القول بأن الله استخرج ذرية آدم من ظهره وأشهدهم على أنفسهم ثم أعادهم.

ومنهم من لم يذكره، بل ذكر أنه نصب لهم الأدلة على ربوبيته ووحدانيته وشهدت بها عقولهم وبصائرهم التي ركبها الله فيهم، ومنهم من ذكر القولين، ولا ريب أن الآية لاتدل على القول الأول، أعني أن الأخذ كان من ظهر آدم، لوجوه.

أحدها: ـ أنه قال: ﴿من بني آدم﴾ ولم يقل: من آدم.

الثاني: ـ أنه قال: ﴿من ظهورهم﴾، ولم يقل: من ظهره.

الثالث: ـ أنه قال: ﴿ذرياتهم﴾ ولم يقل: ذريته.

الرابع: ـ أنه سبحانه أخبر أن حكمة هذا الإشهاد إقامة الحجة عليهم، لئلا يقولوا يوم القيامة: ﴿إنا كنا عن هذا غافلين﴾، والحجة إنما قامت عليهم بالرسل والفطرة التي فطروا عليها، كما قال تعالى: ﴿رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾ [النساء: ١٦٥].

ومن ثم قال قائلون من السلف والخلف: إن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فطرهم على التوحيد.

عدم دلالة الأحاديث على القول الأول

ذكر الأخذ من ظهر آدم والإشهاد عليهم هناك في بعض الأحاديث،

(١) أخرجه البخاري «٣٣٣٤»، ومسلم «٢٨٠٥»، وأحمد «٣/ ١٢٧، ١٢٩، ٢١٨».

والذي فيه الإشهاد ـ على الصفة التي قالها أهل القول الأول ـ موقوف على ابن عباس[1] وابن عمرو[2].

(١) حديث ابن عباس سبق تخريجه، وقد ذكره ابن كثير في تفسيره (٢/ ٢٦٣) ورجح وقفه فقال: وقد رواه عبد الوارث عن كلثوم بن جبر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فوقفه، وكذا رواه اسماعيل بن علية ووكيع عن ربيعة بن كلثوم بن جبر عن أبيه به، وكذا رواه عطاء بن السائب وحبيب بن أبي ثابت وعلي بن بذيمة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، وكذا رواه العوفي وعلي بن أبي طلحة عن ابن عباس، فهذا أكثر وأثبت، والله أعلم.

قال الشيخ أحمد شاكر في شرحه على المسند (٢/ ١٥٢): وكأن ابن كثير يريد تعليل المرفوع بالموقوف، وما هذه بعلة، والرفع زيادة من ثقة، فهي مقبولة صحيحة.

(٢) قال المحقق ص ٣٠٨: «في الأصول ابن عمر وهو تحريف»ا.هـ

قلت: وفي مطبوعتي الألباني وأحمد شاكر «عمر» ولعل منشأ الخطأ عندهما أن الشارح كان قد ذكر قبل قليل حديث عمر ـ رضي الله عنه ـ أنه سئل عن هذه الآية.. ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم﴾ الآية. فقال: سمعت رسول الله ﷺ سئل عنها فقال: «إن الله خلق آدم عليه السلام ثم مسح ظهره بيمينه..» الحديث. وانظر تخريجه في ص ٣٠٥ من مطبوعة التركي والأرناؤوط التي اعتمدنا عليها.

أقول: فلعل مصححي المطبوعتين المذكورتين ظنّا أن المقصود هو حديث عمر المذكور، حتى قال الشيخ شاكر ـ رحمه الله ـ ص ١٨٣: «حديثا ابن عباس وعمر صحيحان مرفوعان وتعليلهما بالوقف على ابن عباس وعمر غير سديد، كما بينا ذلك في شرحهما في المسند»ا.هـ ومما يؤكد أن الصحيح «ابن عمرو» وليس «عمر» أن حديث عمر المشار إليه ليس فيه ذكر الإشهاد، وكلام الشارح إنما هو منصب على الأحاديث التي فيها الإشهاد، وأيضاً فإن الشيخ أحمد شاكر ـ رحمه الله ـ إنما رد القول بالوقف بالنسبة لحديث ابن عباس فقط، أما حديث عمر فإنه ـ وإن صححه أيضاً إلا أنه لم يتعرض فيه لقضية الوقف والرفع «انظر شرح المسند ١/ ٢٨٩ ـ ٢٩٠» وأما حديث ابن عمرو المقصود فنصه كما في تفسير ابن كثير(٣/ ٢٦٣) عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم﴾ قال: أخذ من ظهره كما يؤخذ بالمشط من الرأس، فقال لهم: ﴿ألست بربكم قالوا بلى﴾ قالت الملائكة: ﴿شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين﴾ اهـ قال المحقق ص ٣٠٨: «وأما حديث ابن عمرو فرواه الطبري في تفسيره» «١٥٣٥٤، ١٥٣٥٥، ١٥٣٥٦» من ثلاث طرق: أولاها =

www.rahmah.de

وتكلم فيه أهل الحديث[1]، ولم يخرجه أحد من أهل الصحيح غير الحاكم في المستدرك والحاكم معروف تساهله رحمه الله.

وأقوى ما يشهد لصحة القول الأول: حديث أنس المخرج في الصحيحين الذي فيه: «قد أردت منك ما هو أهون من ذلك، قد أخذت عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئاً فأبيت إلا أن تشرك بي»[2].

ولكن قد روي من طريق أخرى: «قد سألتك أقل من ذلك وأيسر فلم تفعل، فيرد إلى النار». وليس فيه: في ظهر آدم. وليس في الرواية الأولى

= مرفوعة، والأخريان موقوفتان على عبد الله بن عمرو، وقال في المرفوع ١٣/ ٢٥٠: ولا أعلمه صحيحاً لأن الثقات الذين يعتمد على حفظهم وإتقانهم حدثوا بهذا الحديث عن الثوري فوقفوه على عبد الله بن عمرو ولم يرفعوه» ا.هـ

(١) الذي يترجح والله أعلم ثبوت الإشهاد في عالم الذر فإن الرفع زيادة من ثقة كما نقلنا عن الشيخ شاكر، وقال النووي - رحمه الله - في شرح مسلم ٣٠/ ٢١٧: «المذهب الصحيح المختار الذي ذهب إليه الفقهاء وأصحاب الأصول والمحققين من المحدثين... أن الحديث إذا رواه بعض الثقات متصلاً وبعضهم مرسلاً أو بعضهم مرفوعاً وبعضهم موقوفاً حكم بالمتصل والمرفوع لأنهما زيادة ثقة، وهي مقبولة عند الجماهير من كل الطوائف، والله أعلم» ا.هـ

قلت: ويفرض أن الحديثين موقوفان فإن ذلك مما لا يقال من جهة الرأي فيكون له حكم المرفوع كما هو مقرر في علم أصول الحديث «انظر تدريب الراوي ١/ ١٩٠» ولا منافاة بين كون الله قد أخذ على بني آدم الميثاق وهم في عالم الذر وبين كونه قد فطرهم شاهدين على ما أخذه عليهم في الميثاق الأول، قال الشيخ حافظ بن أحمد حكمي في معارج القبول ١/ ٤٠ - ٤١: «ليس بين التفسيرين منافاة ولا مضادة ولا معارضة فإن هذه المواثيق كلها ثابتة بالكتاب والسنة. الأول الميثاق الذي أخذه الله تعالى عليهم حين أخرجهم من ظهر أبيهم آدم عليه السلام وأشهدهم على أنفسهم **﴿ألست بربكم قالوا بلى﴾**، وهو الذي قاله جمهور المفسرين، وهو نص الأحاديث الصحيحة الثابتة في الصحيحين وغيرهما. الميثاق الثاني: ميثاق الفطرة وهو أنه تبارك وتعالى فطرهم شاهدين بما أخذه عليهم في الميثاق الأول كما قال تعالى **﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله﴾** الآية، الميثاق الثالث: هو ما جاءت به الرسل، وأنزلت به الكتب تجديداً للميثاق الأول وتذكيراً به...» ا.هـ

(٢) سبق تخريجه ص٤٢.

إخراجهم من ظهر آدم على الصفة التي ذكرها أصحاب القول الأول.

الإقرار بالربوبية أمر فطري

ولا شك أن الإقرار بالربوبية أمر فطري، والشرك حادث طارىء، والأبناء تقلدوه عن الآباء، فإذا احتجوا يوم القيامة بأن الآباء أشركوا ونحن جرينا على عادتهم كما يجري الناس على عادة آبائهم في المطاعم والملابس والمساكن، يقال لهم: أنتم كنتم معترفين بالصانع، مقرين بأن الله ربكم لا شريك له، وقد شهدتم بذلك على أنفسكم، فإن شهادة المرء على نفسه هي إقراره بالشيء ليس إلا، قال الله تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم﴾** [النساء: ١٣٥]. وليس المراد أن يقول: أشهد على نفسي بكذا، بل من أقرّ بشيء فقد شهد على نفسه به، فلم عدلتم عن هذه المعرفة والإقرار الذي شهدتم به على أنفسكم إلى الشرك؟بل عدلتم عن المعلوم المتيقن إلى ما لا يعلم له حقيقة، تقليداً لمن لا حجة معه، بخلاف اتباعهم في العادات الدنيوية، فإن تلك لم يكن عندكم ما يعلم به فسادها، وفيه مصلحة لكم، بخلاف الشرك، فإنه كان عندكم من المعرفة والشهادة على أنفسكم ما يبين فساده وعدولكم فيه عن الصواب.

www.rahmah.de

المبحث الثالث
بعض معاني الربوبية

الخالق الرازق:

(٣ ـ ١١) قوله: (خالق بلا حاجة، رازق بلا مؤونة)

ش: قال تعالى: ﴿**وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون. ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون. إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين**﴾ [الذاريات: ٥٦ ـ ٥٨]. وقال ﷺ فيما يرويه عن ربه من حديث أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ: «... يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد، فسألوني، فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما يَنْقُصُ المخيط إذا أدخل البحر» الحديث. رواه مسلم[1]. وقوله: (بلا مؤونة) بلا ثِقَل ولا كُلْفة.

المحيي المميت:

(٤ ـ ١٢) قوله: (مميت بلا مخافة، باعث بلا مشقة)

ش: الموت صفة وجودية، قال تعالى: ﴿**الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا**﴾ [الملك: ٢]. والعدم لا يوصف بكونه مخلوقاً. وفي الحديث: أنه «يؤتى بالموت يوم القيامة على صورة كبش أملح، فيذبح

(١) أخرجه مسلم «٢٥٧٧» وأحمد «٥/ ١٦٠» والترمذي «٢٤٩٥» وابن ماجه «٤٢٥٧».

بين الجنة والنار»[1] وهو وإن كان عرضاً فالله تعالى يقلبه عيناً.

ملكه سبحانه لكل شيء:

(٥ ـ ١٠٢) قوله: (ويملك كل شيء، ولا يملكه شيء، ولا غنى عن الله تعالى طرفة عين، ومن استغنى عن الله طرفة عين، فقد كفر وصار من أهل الحين)

ش: كلام حق ظاهر لا خفاء فيه. والحين، بالفتح: الهلاك.

(١) حديث ذبح الموت بين الجنة والنار أخرجه البخاري «٤٧٣٠»، ومسلم «٢٨٤٩»، وأحمد «٣/ ٩» والترمذي «٣١٥٦» من حديث أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه.

www.rahmah.de

المبحث الرابع
سبق ربوبيته سبحانه

(٦ ـ ١٥) قوله: (له معنى الربوبية ولا مربوب، ومعنى الخالق ولا مخلوق).

ش: يعني أن الله تعالى موصوف بأنه (الرب) قبل أن يوجد مربوب، وموصوف بأنه (خالق) قبل أن يوجد مخلوق.

(٧ ـ ١٦) قوله: (وكما أنه محيي الموتى بعد ما أحيا استحق هذا الاسم قبل إحيائهم، كذلك استحق اسم الخالق قبل إنشائهم).

ش: يعني: أنه سبحانه وتعالى موصوف بأنه محيي الموتى قبل إحيائهم، فكذلك يوصف بأنه خالق قبل خلقهم، إلزاماً للمعتزلة ومن قال بقولهم[1].

(٨ ـ ١٤) قوله: (ليس منذ خلق الخلق استفاد اسم (الخالق) ولا بإحداثه البرية استفاد اسم (الباري))

روى البخاري وغيره عن عمران بن حصين ـ رضي الله عنه ـ قال: «قال أهل اليمن لرسول الله ﷺ جئناك لنتفقه في الدين، ولنسألك عن أول

(١) أي في قولهم: إن الله صار قادراً على الفعل بعد أن لم يكن قادراً عليه. فعلى قولهم لا يسمى خالقاً قبل أن يَخلق. فرد عليهم بأنه كما يسمى محيي الموتى قبل إحيائهم كذا يسمى خالقاً قبل الخلق، وسيأتي مزيد بيان لذلك عند قول الشيخ «ما زال بصفاته قديماً قبل خلقه...» في توحيد الصفات.

هذا الأمر، فقال: كان الله ولم يكن شيء قبله»[1]، وفي رواية «غيره»، «وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء، وخلق السموات والأرض» وفي لفظ: «ثم خلق السموات والأرض».

والناس في هذا الحديث على قولين: منهم من قال: إن المقصود إخباره بأن الله كان موجوداً وحده ثم ابتدأ إحداثَ جميع الحوادث، وأن الله صار فاعلاً بعد أن لم يكن يفعل شيئاً من الأزل إلى حين ابتداء الفعل ولا كان الفعل ممكناً.

والقول الثاني: المراد إخباره عن مبدأ خلق هذا العالم المشهود الذي خلقه الله في ستة أيام ثم استوى على العرش، كما أخبر القرآن بذلك في غير موضع.

وفي «صحيح مسلم» عن عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ أنه قال: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، قال وعرشه على الماء»[2]. فأخبر ﷺ أن تقدير هذا العالم المخلوق في ستة أيام كان قبل خلقه بخمسين ألف سنة، وأن عرش الرب تعالى كان حينئذ على الماء.

دليل صحة هذا القول الثاني من وجوه: أحدها: أن قول أهل اليمن «جئناك لنسألك عن أول هذا الأمر»، وهو إشارة إلى حاضر مشهود موجود، وقد أجابهم النبي ﷺ عن بدء هذا العالم الموجود، لا عن جنس المخلوقات، لأنهم لم يسألوه عنه، وقد أخبرهم عن خلق السموات والأرض حال كون عرشه على الماء، ولم يخبرهم عن خلق العرش، وهو مخلوق قبل خلق السموات والأرض.

وأيضاً فإنه قال: «كان الله ولم يكن شيء قبله» أو «غيره»، «وكان عرشه

(١) أخرجه البخاري «٧٤١٨»، بلفظ (ولم يكن شيء قبله)، «٣١٩١» بلفظ: (ولم يكن شيء غيره)، وأخرجه أحمد ٤٥/ ٤٣١، ٤٣٢» بلفظ: «غيره».

(٢) أخرجه مسلم «٢٦٥٣» والترمذي «٢١٥٦».

www.rahmah.de

على الماء وكتب في الذكر كل شيء» فأخبر عن هذه الثلاثة بالواو، و «خلق السموات والأرض» روي بالواو وبثم، فظهر أن مقصوده إخباره إياهم ببدء خلق السموات والأرض وما بينهما، وهي المخلوقات التي خلقت في ستة أيام، لا ابتداء خلق ما خلقه الله قبل ذلك.

وأيضاً: فقوله ﷺ «كان الله ولم يكن شيء قبله، أو غيره، وكان عرشه على الماء» لا يصح أن يكون المعنى أنه تعالى موجود وحده لا مخلوق معه أصلاً، لأن قوله «وكان عرشه على الماء» يرد ذلك، فإن هذه الجملة وهي «وكان عرشه على الماء» إما حالية، أو معطوفة وعلى كلا التقديرين فهو مخلوق موجود في ذلك الوقت، فعلم أن المراد ولم يكن شيء من هذا العالم المشهود.

النوع الثاني:
توحيد الألوهية

(٩ ـ ٤) قوله: (ولا إله غيره).

ش: هذه كلمة التوحيد التي دعت إليها الرسل كلها، وإثبات التوحيد بهذه الكلمة باعتبار النفي والإثبات المقتضي للحصر، فإن الإثبات المجرد قد تطرق إليه الاحتمال. ولهذا ـ والله أعلم ـ لما قال تعالى: ﴿**وإلهكم إله واحد**﴾ قال بعده: ﴿**لا إله إلا هو الرحمن الرحيم**﴾ [البقرة: ١٦٣]. فإنه قد يخطر ببال أحد خاطر شيطاني: هب أن إلهنا واحد، فلغيرنا إله غيره، فقال تعالى: ﴿**لا إله إلا هو**﴾.

المبحث الأول
بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية[1]

وكثير من أهل النظر يزعمون أن دليل التمانع هو معنى قوله تعالى: ﴿**لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا**﴾ [الأنبياء: ٢٢]. لاعتقادهم أن توحيد الربوبية الذي قرروه هو توحيد الإلهية الذي بينه القرآن، ودعت إليه الرسل عليهم السلام، وليس الأمر كذلك، بل التوحيد الذي دعت إليه الرسل، ونزلت به الكتب، هو توحيد الإلهية المتضمن توحيد الربوبية، وهو عبادة الله

(١) هذا المبحث مأخوذ من كلام الشارح على الفقرة «١» وأولها: «نقول في توحيد الله..»

www.rahmah.de

وحده لا شريك له، فإن المشركين من العرب كانوا يقرُّون بتوحيد الربوبية، وأن خالق السموات والأرض واحد، كما أخبر تعالى عنهم بقوله: **﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله﴾** [لقمان: ٢٥]، ولم يكونوا يعتقدون في الأصنام أنها مشاركة لله في خلق العالم، بل كان حالهم فيها كحال أمثالهم من مشركي الأمم من الهند والترك والبربر وغيرهم، تارة يعتقدون أن هذه تماثيل قوم صالحين من الأنبياء والصالحين، ويتخذونهم شفعاء، ويتوسلون بهم إلى الله، وهذا كان أصل شرك العرب، قال تعالى حكاية عن قوم نوح: **﴿وقالوا لا تذرُنَّ آلهتكم ولا تذرُنَّ وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً﴾** [نوح: ٢٣].

وقد ثبت في صحيح البخاري عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن هذه أسماء قوم صالحين في قوم نوح، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوَّروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمد، فعبدوهم. وأن هذه الأصنام بعينها صارت إلى قبائل العرب، ذكرها ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ، قبيلة قبيلة[1]، وقد ثبت في صحيح مسلم عن أبي الهيّاج الأسدي، قال: قال لي عليّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ: ألا أبعثك على ما بعثني رسول الله ﷺ؟ «أمرني أن لا أدع قبراً مشرفاً إلا سويته، ولا تمثالاً إلا طمسته»[2]، وفي الصحيحين عن عائشة عن النبي ﷺ أنه قال في مرض موته: «لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» قالت: فلولا ذاك أبرز قبره غير أنه خُشِيَ أن يتخذ مسجداً»[3].

وهؤلاء كانوا مقرين بالصانع، وأنه ليس للعالم صانعان، ولكن اتخذوا

(١) أخرجه البخاري (٤٩٢٠) من طريق ابن جريج قال وقال عطاء عن ابن عباس فذكر الحديث، وقد قيل إنه منقطع لأن عطاء المذكور هو الخراساني، ولم يلق ابن عباس، لكن رجح الحافظ اتصاله، وذكر في الفتح «٨/ ٥٣٥ ـ ٥٣٦» أن هذا الحديث بخصوصه عند ابن جريج عن عطاء الخراساني وعطاء بن أبي رباح جميعاً.

(٢) أخرجه مسلم (٩٦٩)، وأبو داود (٣٢١٨)، والترمذي (١٠٤٩)، والنسائي (٢٠٣١).

(٣) أخرجه البخاري (١٣٣٠)، (١٣٩٠)، (٤٤٤١)، ومسلم (٥٢٩) واللفظ لمسلم.

هذه الوسائط شفعاء، كما أخبر عنهم تعالى بقوله: **﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾** [الزمر: ٣].

فلو أقر رجل بتوحيد الربوبية، الذي يقر به هؤلاء النظار، ويغنى فيه كثير من أهل التصوف ويجعلونه غاية السالكين، كما ذكره صاحب «منازل السائرين»[1] وغيره، وهو مع ذلك إن لم يعبد الله وحده ويتبرأ من عبادة ما سواه، كان مشركاً من جنس أمثاله من المشركين، فعلم أن التوحيد المطلوب هو توحيد الإلهية الذي يتضمن توحيد الربوبية.

توحيد الإلهية متضمن لتوحيد الربوبية

وتوحيد الإلهية متضمن لتوحيد الربوبية دون العكس. فمن لا يقدر على أن يخلق يكون عاجزاً، والعاجز لا يصلح أن يكون إلهاً. قال تعالى: **﴿أيُشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يُخلقون﴾** [الأعراف: ١٩١]، وقال تعالى:

(١) هو أبو إسماعيل عبد الله بن محمد بن علي الأنصاري الهروي الحنبلي المتوفى سنة ٤٨١ هـ، وكتابه «منازل السائرين إلى مقامات إياك نعبد وإياك نستعين» هو كتاب في علم السلوك قسم فيه طريق السائرين إلى الله عز وجل إلى منازل بلغت مائة منزلة، وقد كان الهروي من أهل السنة المناوئين للجهمية وأشباههم. قال ابن القيم: «وله كتاب الفاروق استوعب فيه أحاديث الصفات وآثارها ولم يسبق إلى مثله، وكتاب «ذم الكلام وأهله» وطريقته فيه أحسن طريقة «انظر مدارج السالكين ١/ ٢٦٣». غير أنه قد وقع منه في كتاب المنازل بعض المخالفات لطريقة السلف ـ رضي الله عنهم ـ مما اعتبره الإمام ابن القيم: «من الشطحات التي تُرجى مغفرتها بكثرة الحسنات ويستغرقها كمال الصدق وصحة المعاملة وقوة الإخلاص وتجريد التوحيد...» «انظر المدارج ٢/ ٣٩» وقد قام الإمام ابن القيم رحمه الله بشرح كتاب منازل السائرين في كتابه القيم «مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين» وهو من أحسن كتبه رحمه الله، وقد نبه فيه على ما وجده في كلام الهروي من مخالفات لكتاب الله وسنة رسوله، هذا مع حرصه على أن لا يعجل باتهام الهروي رحمه الله بل كان يحاول أن يجد لقوله مخرجاً وأن يحمله على أحسن محامله فإن لم يجد اضطر إلى رد ذلك القول في أدب جم، وتواضع شديد، وربما دعا للهروي بأن «يشكر الله سعيه ويعلي درجته ويجزيه أفضل جزائه ويجمع بيننا وبينه في محل كرامته» انظر المدارج «٢/ ٨٥٢».

www.rahmah.de

﴿أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون﴾ [النحل: ١٧].

دليل التمانع في الألوهية

قال تعالى: ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾ [الأنبياء: ٢٢]. وقد ظن طوائف أن هذا دليل التمانع الذي تقدم ذكره، وهو أنه لو كان للعالم صانعان إلخ.. وغفلوا عن مضمون الآية، فإنه سبحانه أخبر أنه لو كان فيهما آلهة غيره، ولم يقل أرباب وأيضاً فإنه قال: ﴿لفسدتا﴾، وهذا فساد بعد الوجود، ولم يقل: لم يوجدا، ودلت الآية على أنه لا يجوز أن يكون فيهما آلهة متعددة، بل لا يكون الإله إلا واحداً، وعلى أنه لا يجوز أن يكون هذا الإله الواحد إلا الله سبحانه وتعالى،وأن فساد السموات والأرض يلزم من كون الآلهة فيهما متعددة، ومن كون الإله الواحد غير الله وأنه لا صلاح لهما إلا بأن يكون الإله فيهما هو الله وحده لا غيره. فلو كان للعالم إلهان معبودان لفسد نظامه كله، فإن قيامه إنما هو بالعدل، وبه قامت السموات والأرض.

وأظلم الظلم على الإطلاق الشرك، وأعدل العدل التوحيد.

فذاك تمانع في الفعل والإيجاد، وهذا تمانع في العبادة والإلهية.

المبحث الثاني
طرق القرآن في تقرير توحيد الألوهية (١)

والقرآن مملوء من تقرير هذا التوحيد، وبيانه وضرب الأمثال له:

١ ـ الاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية:

ومن ذلك أنه يقرر توحيد الربوبية، ويبين أنه لا خالق إلا الله، وأن ذلك مستلزم أن لا يُعبد إلا الله، فيجعل الأول دليلاً على الثاني، إذ كانوا يسلّمون الأول، وينازعون في الثاني، فيبين لهم سبحانه أنكم إذا كنتم تعلمون أنه لا خالق إلا الله، وأنه هو الذي يأتي العباد بما ينفعهم، ويدفع عنهم ما يضرهم، لا شريك له في ذلك، فلم تعبدون غيره، وتجعلون معه آلهة أخرى؟

كقوله تعالى: ﴿قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى، آلله خير أمّا يشركون أم مَّن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون﴾ الآيات [النمل: ٥٩ ـ ٦٠]. يقول الله تعالى في آخر كل آية ﴿أإله مع الله﴾ أي أإله مع الله فعل هذا؟ وهذا استفهام إنكار، يتضمن نفي ذلك، وهم كانوا مقرين بأنه لم يفعل ذلك غير الله، وكذلك قوله تعالى: ﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾ [البقرة: ٢١]، وأمثال ذلك.

---

(١) هذا المبحث مأخوذ بكامله من كلام الشارح على الفقرة رقم «١» وأولها «نقول في توحيد الله معتقدين...».

www.rahmah.de

٢ ـ شهادة الله سبحانه على توحيد الألوهية:

وكذلك شهد الله لنفسه بهذا التوحيد، وشهدت له به ملائكته وأنبياؤه ورسله. قال تعالى: ﴿**شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم. إن الدين عند الله الإسلام**﴾ [آل عمران: ١٨، ١٩]. فتضمنت هذه الآية الكريمة إثبات حقيقة التوحيد، والرد على جميع طوائف الضلال فتضمنت أجلّ شهادة وأعظمها وأعدلها وأصدقها، من أجلّ شاهد، بأجل مشهود به.

وعبارات السلف في (شهد) تدور على الحكم، والقضاء، والإعلام، والبيان، والإخبار. وهذه الأقوال كلها حق لا تنافي بينها: فإن الشهادة تتضمن كلام الشاهد وخبره، وتتضمن إعلامه وإخباره وبيانه.

فشهادة الله سبحانه لنفسه بالوحدانية والقيام بالقسط تضمنت مراتب أربع: علمه بذلك سبحانه، وتكلمه به، وإعلامه وإخباره لخلقه به، وأمرهم وإلزامهم به.

ووجه استلزام شهادته سبحانه لذلك: أنه إذا شهد أنه لا إله إلا هو، فقد أخبر وبيّن وأعلم وحكم وقضى أنّ ما سواه ليس بإله، وأن إلهية ما سواه باطلة، فلا يستحق العبادة سواه، كما لا تصلح الإلهية لغيره، وذلك يستلزم الأمر باتخاذه وحده إلهاً، والنهي عن اتخاذ غيره معه إلهاً، وهذا يفهمه المخاطب من هذا النفي والإثبات، كما إذا رأيت رجلاً يستفتي رجلاً أو يستشهده أو يستطبّه وهو ليس أهلاً لذلك، ويدع من هو أهل له، فتقول: هذا ليس بمفْت ولا شاهد ولا طبيب، المفتي فلان، والشاهد فلان، والطبيب فلان، فإن هذا أمر منه ونهي.

بيان الله لتلك الشهادة

والحكم والقضاء بأنه لا إله إلا هو متضمن للإلزام. ولو كان المراد مجرد شهادة لم يتمكنوا من العلم بها، ولم ينتفعوا بها، ولم تقم عليهم بها الحجة. بل قد تضمنت البيان للعباد ودلالتهم وتعريفهم بما شهد به، كما أن

الشاهد من العباد إذا كانت عنده شهادة ولم يبينها بل كتمها، لم ينتفع بها أحد، ولم تقم بها حجة.

وإذا كان لا ينتفع بها إلا ببيانها، فهو سبحانه قد بينها غاية البيان بطرق ثلاثة: السمع، والبصر، والعقل.

أ ـ السمع:

أما السمع: فبسمع آياته المتلوة المبينة لما عرّفنا إياه من صفات كماله كلها، الوحدانية وغيرها، غاية البيان، وكذلك السنة تأتي مبينة أو مقررة لما دل عليه القرآن، لم يحوجنا ربنا سبحانه وتعالى إلى رأي فلان، ولا إلى ذوق فلان ووجده في أصول ديننا.

ب ـ البصر:

وأما آياته العيانية الخلقية، فالنظر فيها والاستدلال بها يدل على ما تدل عليه آياته القولية السمعية.

ج ـ العقل:

والعقل يجمع بين هذه وهذه، ويجزم بصحة ما جاءت به الرسل، فتتفق شهادة السمع والبصر والعقل والفطرة.

٣ ـ الاستدلال بأسماء الله وصفاته على توحيد الألوهية:

قال تعالى: ﴿**سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق**﴾ [فصلت: ٥٣]. أي القرآن. ثم قال: ﴿**أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد**﴾ [فصلت: ٥٣]. فشهد سبحانه لرسوله بقوله إن ما جاء به حق، ووعد أن يُري العباد من آياته الفعلية الخَلقية ما يشهد بذلك أيضاً. ثم ذكر ما هو أعظم من ذلك كله وأجلّ، وهو شهادته سبحانه على كل شيء، وهذا استدلال بأسمائه وصفاته.

فإن قلت: كيف يستدل بأسمائه وصفاته فإن الاستدلال بذلك لا يعهد في الاصطلاح؟

www.rahmah.de

فالجواب: أن الله تعالى قد أودع في الفطر التي لم تتنجس بالجحود والتعطيل، ولا بالتشبيه والتمثيل،أنه سبحانه الكامل في أسمائه وصفاته، وأنه الموصوف بما وصف به نفسه ووصفه به رسله، وما خفي عن الخلق من كماله أعظم وأعظم مما عرفوه منه ومن كماله المقدّس شهادته على كل شيء واطلاعه عليه، بحيث لا يغيب عنه ذرة في السموات ولا في الأرض باطناً وظاهراً. ومن هذا شأنه كيف يليق بالعباد أن يشركوا به، وأن يعبدوا غيره ويجعلوا معه إلهاً آخر؟ وكيف يليق بكماله أن يقرّ من يكذب عليه أعظم الكذب، ويخبر عنه بخلاف ما الأمر عليه، ثم ينصره على ذلك ويؤيده ويعلي شأنه ويجيب دعوته ويهلك عدوه، ويظهر على يديه من الآيات والبراهين ما يعجز عن مثله قوى البشر، وهو مع ذلك كاذب عليه مفتر؟!

والقرآن مملوء من هذه الطريق. قال تعالى: ﴿**ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل. لأخذنا منه باليمين. ثم لقطعنا منه الوتين. فما منكم من أحد عنه حاجزين**﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٧]. ويستدل أيضاً بأسمائه وصفاته على وحدانيته وعلى بطلان الشرك، كما في قوله تعالى: ﴿**هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون**﴾ [الحشر: ٢٣]. وأضعاف ذلك في القرآن. وهذه الطريق قليل سالكها، لا يهتدي إليها إلا الخواصّ. وطريقة الجمهور الاستدلال بالآيات المشاهدة، لأنها أسهل تناولاً وأوسع. والله سبحانه يفضل بعض خلقه على بعض.

المبحث الثالث
الدعاء

(١٠ ـ ١٠١) قوله: (والله تعالى يستجيب الدعوات، ويقضي الحاجات)

ش: قال تعالى: ﴿**وقال ربكم ادعوني أستجب لكم**﴾ [غافر: ٦٠]. ﴿**وإذا سألك عبادي عني فإني قريب، أجيب دعوة الداع إذا دعان**﴾ [البقرة: ١٨٦]. والذي عليه أكثر الخلق من المسلمين وسائر أهل الملل وغيرهم: أن الدعاء من أقوى الأسباب في جلب المنافع ودفع المضار، وقد أخبر تعالى عن الكفار أنهم إذا مسّهم الضر في البحر دعوا الله مخلصين له الدين.

وإجابة الله لدعاء العبد، مسلماً كان أو كافراً، وإعطاؤه سؤله: من جنس رزقه لهم. وهو مما توجبه الربوبية للعبد مطلقاً، ثم قد يكون ذلك فتنة في حقه ومضرة عليه، إذ كان كفره وفسوقه يقتضي ذلك.

الرد على من زعم عدم فائدة الدعاء

وذهب قوم من المتفلسفة وغالية المتصوفة إلى أن الدعاء لا فائدة فيه!

قالوا: لأن المشيئة الإلهية إن اقتضت وجودَ المطلوب فلا حاجة إلى الدعاء، وإن لم تقتضه فلا فائدة في الدعاء!!

وجواب الشبهة بمنع المقدمتين: فإن قولهم عن المشيئة الإلهية: إما أن تقتضيه أو لا، ثَمَّ قسم ثالث، وهو: أن تقتضيه بشرط لا تقتضيه مع عدمه،

www.rahmah.de

وقد يكون الدعاء من شرطه، كما توجب الثواب مع العمل الصالح، ولا توجبه مع عدمه، وكما توجب الشبع والريّ عند الأكل والشرب، ولا توجبه مع عدمهما، وحصول الولد بالوطء، والزرع بالبذر. فإذا قدّر وقوع المدعوّ به بالدعاء لم يصحّ أن يقال لا فائدة في الدعاء، كما لا يقال لا فائدة في الأكل والشرب والبذر وسائر الأسباب. فقول هؤلاء - كما أنه مخالف للشرع، فهو مخالف للحسّ والفطرة.

ومما ينبغي أن يعلم، ما قاله طائفة من العلماء، وهو: أن الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد ومحو الأسباب أن تكون أسباباً نقصٌ في العقل، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع. ومعنى التوكل والرجاء، يتألف من موجب التوحيد والعقل والشرع.

وبيان ذلك: أن الالتفات إلى السبب هو اعتماد القلب عليه ورجاؤه والاستناد إليه. وليس في المخلوقات ما يستحق هذا، لأنه ليس بمستقلّ، ولا بد له من شركاء وأضداد ومع هذا كله، فإن لم يسخّره مسبب الأسباب لم يسخر.

وقولهم: إن اقتضت المشيئة المطلوب فلا حاجة إلى الدعاء؟

قلنا: بل قد تكون إليه حاجة من تحصيل مصلحة أخرى عاجلة وآجلة، ودفع مضرة أخرى عاجلة وآجلة وكذلك قولهم: وإن لم تقتضه فلا فائدة فيه؟

قلنا: بل فيه فوائد عظيمة، من جلب منافع، ودفع مضارّ، كما نبه عليه النبي ﷺ بل ما يُعجل للعبد من معرفته بربه، وإقراره به، وبأنه سميع قريب قدير عليم رحيم، وإقراره بفقره إليه واضطراره إليه، وما يتبع ذلك من العلوم العلية والأحوال الزكية، التي هي من أعظم المطالب.

المعنى الصحيح لإجابة الدعاء

وهنا سؤال معروف، وهو: أن من الناس من قد يسأل الله شيئاً فلا يعطى، أو يعطى غير ما سأل؟ وقد أجيب عنه بأجوبة، فيها ثلاثة أجوبة محققة:

أحدها: أن الآية[1] لم تتضمن عطية السؤال مطلقاً، وإنما تضمنت إجابة الداعي، والداعي أعمّ من السائل، وإجابة الداعي أعم من إعطاء السائل. ولهذا قال النبي ﷺ: «ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر يقول: من يدعوني فأستجيبَ له؟ من يسألني فأعطيَه؟من يستغفرني فأغفرَ له؟»[2]. ففرق بين الداعي والسائل، وبين الإجابة والإعطاء، وهو فرق بين العموم والخصوص، كما أتبع ذلك بالمستغفر، وهو نوع من السائل، فذكر العام ثم الخاص ثم الأخص. وإذا علم العباد أنه قريب يجيب دعوة الداعي، علموا قربه منهم، وتمكنهم من سؤاله، وعلموا علمه ورحمته وقدرته، فدعوه دعاء العبادة في حال، ودعاء المسألة في حال، وجمعوا بينهما في حال[3].

الجواب الثاني: أن إجابة دعاء السؤال أعمّ من إعطاء عين المسؤول كما فسره النبي ﷺ قال: «ما من رجل يدعو الله بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه بها إحدى ثلاث خصال: إما أن يعجل له دعوته، أو يدّخرَ له من الخير مثلها، أو يصرف عنه من الشر مثلها». قالوا: يا رسول الله إذاً نكثر، قال: «الله أكثر»[4]. فقد أخبر الصادق المصدوق أنه لا بد في الدعوة الخالية من العدوان من إعطاء السؤال معجلاً، أو مثله من الخير

---

(١) أي قوله تعالى ﴿وقال ربكم ادعوني أستجب لكم﴾.

(٢) أخرجه البخاري «١١٤٥»، «٦٣٢١»، «٧٤٩٤»؛ ومسلم «٧٥٨»؛ وأبو داود «١٣١٥»، «٤٧٣٣»؛ والترمذي «٤٤٦»، «٣٤٩٨»؛ وابن ماجه «١٣٦٦» من حديث أبي هريرة، وحديث النزول متواتر كما في نظم المتناثر من الحديث المتواتر للكتاني. ص ١١٤ - ١١٥.

(٣) دعاء المسألة هو طلب ما ينفع الداعي من جلب نفع أو كشف ضر، ودعاء العبادة هو عبادة الله تعالى بأنواع العبادات من الصلاة والذبح والنذر وغيرها كما حققه شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره. وانظر في ذلك تيسير العزيز الحميد ص ٢١٥، ٢٢٧.

(٤) أخرجه من حديث أبي سعيد الخدري، أحمد «٣/ ١٨»، والحاكم «١/ ٤٩٣»، وصححه ووافقه الذهبي. وقال الهيثمي في المجمع ١٠/ ١٤٨ - ١٤٩: رواه أحمد وأبو يعلى بنحوه والبزار والطبراني في الأوسط، ورجال أحمد وأبي يعلى، وأحد إسنادي البزار رجاله رجال الصحيح غير علي بن الرفاعي وهو ثقة.

www.rahmah.de

مؤجلاً، أو يصرف عنه من السوء مثله.

الجواب الثالث: أن الدعاء سبب مقتض لنيل المطلوب، والسبب له شروط وموانع، فإذا حصلت شروطه وانتفت موانعه حصل المطلوب، وإلا فلا يحصل ذلك المطلوب، بل قد يحصل غيره، وهذا كما إذا استعمل رجل دواءً نافعاً في الوقت الذي ينبغي، فانتفع به، فظن آخر أن استعمال هذا الدواء بمجرده كاف في حصول المطلوب، وكان غالطاً. وكذا قد يدعو باضطرار عند قبر، فيجابُ، فيظنّ أن السر للقبر، ولم يدر أن السر للاضطرار وصدق اللجأ إلى الله تعالى، فإذا حصل ذلك في بيت من بيوت الله تعالى كان أفضلَ وأحبَّ إلى الله تعالى. فالأدعية والتعوذات والرقى بمنزلة السلاح، والسلاح بضاربه، لا بحده فقط، فمتى كان السلاح سلاحاً تاماً والساعد ساعداً قوياً، والمحل قابلاً، والمانع مفقوداً، حصلت به النكاية في العدو، ومتى تخلّف واحد من هذه الثلاثة تخلف التأثير. فإذا كان الدعاء في نفسه غير صالح، أو الداعي لم يجمع بين قلبه ولسانه في الدعاء، أو كان ثمّ مانع من الإجابة: لم يحصل الأثر.

عدم تأثير السائل في المسؤول

فإن قيل: إذا كان إعطاء الله معللاً بفعل العبد، كما يُعقَل من إعطاء المسؤول للسائل، كان السائل قد أثّر في المسؤول حتى أعطاه؟!

قلنا: الرب سبحانه هو الذي حرّك العبد إلى دعائه، فهذا الخير منه، وتمامه عليه. كما قال عمر ـ رضي الله عنه ـ: «إني لا أحمل همَّ الإجابة، وإنما أحمل همَّ الدعاء، ولكن إذا ألهمت الدعاء فإن الإجابة معه». وقال مطرّف بن عبد الله بن الشِّخِّير[1]، أحد أئمة التابعين: نظرت في هذا الأمر،

(١) هو الإمام أبو عبد الله العامري الحرشي البصري: كان رأساً في العلم والعمل وله جلالة في الإسلام ووقع في النفوس، روى غيلان بن جرير عنه أن رجلا كذب عليه فقال مطرف: اللهم إن كان كاذباً فأمته، فخر مكانه ميتاً، توفي مطرف رحمه الله سنة ٩٥هـ. «تذكرة الحفاظ ١/ ٦٤ ـ ٦٥».

فوجدت مبدأه من الله، وتمامه على الله، ووجدتُ ملاك ذلك الدُّعاء[1].

(١) أخرج الإمام أحمد في كتاب الزهد عن مطرف بن عبد الله قال: تذكرت ما جماع الخير فإذا الخير كثير: الصلاة والصوم وإذا هو من الله عز وجل، وإذا أنت لا تقدر على ما في يد الله عز وجل إلا أن تسأله فيعطيك فإذا جماع الخير في الدعاء». هـ «الزهد: ١٩٦/٢ ط. دار النهضة العربية بيروت ـ بدون تاريخ».

www.rahmah.de

المبحث الرابع
التوسل[1]

الاستشفاع بالنبي ﷺ وغيره في الدنيا إلى الله تعالى في الدعاء، فيه تفصيل.

فإن الداعي تارة يقول: بحق نبيك أو بحق فلان، يقسم على الله بأحد من مخلوقاته، فهذا محذور من وجهين:

(١) اجتزأت هذا المبحث من كلام الشارح على الفقرة (٤٩) وهي قوله (والشفاعة التي ادخرها لهم حق) لأني رأيت أن ذكر التوسل عند الحديث عن توحيد الألوهية أولى من ذكره عند الحديث على الشفاعة في الآخرة. هذا ومما ينبغي التنبيه عليه هنا أن ثمة فارقاً بين التوسل ودعاء غير الله، فإن من دعا غير الله فقد وقع في الشرك الأكبر، ومن ذلك ما يفعله كثير من الجهال من التوجه إلى قبور من يرونهم أولياء صالحين فيدعونهم ويطلبون منهم كشف الكروب. نسأل الله السلامة من ذلك.
أما التوسل فهو أن يتوجه بدعائه إلى الله عز وجل، ولكن يقرن دعاءه بوسيلة يتوسل بها إلى الله فهذا فيه التفصيل الذي أشار إليه الشارح فإن كان من التوسل الذي وردت به النصوص فهو جائز، وإلا فهو حرام وقد دلت النصوص الشرعية على جواز التوسل بثلاثة أمور: الأول: التوسل إلى الله سبحانه بأسمائه وصفاته كما قال تعالى: ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾ الثاني: التوسل إلى الله بالأعمال الصالحة كما في حديث الثلاثة الذين انسد عليهم الغار. الثالث: التوسل إلى الله بدعاء رجل صالح حي، كما في استسقاء الصحابة بدعاء العباس ـ رضي الله عنه ـ أما ما عدا ذلك من التوسل إلى الله بشيء من مخلوقاته فهو حرام، وليس شركاً، ولكنه ذريعة إلى الشرك، والله أعلم. انظر في ذلك قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة لشيخ الإسلام ابن تيمية. وهي مطبوعة ضمن مجموع الفتاوى (١/ ١٤٢ ـ ٣٦٨).

أحدهما: أنه أقسم بغير الله، ولا يجوز الحلف بغير الله، وقد قال ﷺ: «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك»[1].

والثاني: اعتقاده أنْ لأحد على الله حقاً، وليس لأحد على الله حق إلا ما أحقه على نفسه، كقوله تعالى: ﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾ [الروم: ٤٧]. وكذلك ما ثبت في «الصحيحين» من قوله ﷺ لمعاذ رضي الله عنه، وهو رديفه: «يا معاذ، أتدري ما حق الله على عباده؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: حقُّهم عليه أن لا يعذبهم»[2] فهذا حق وجب بكلماته التامة ووعده الصادق، لا أن العبد نفسه مستحق على الله شيئاً كما يكون للمخلوق على المخلوق، فإن الله هو المنعم على العباد بكل خير، وحقهم الواجب بوعده هو أن لا يعذبهم، وترك تعذيبهم معنى لا يصلح أن يقسم به، ولا أن يُسأل بسببه ويتوسل به، لأن السبب هو ما نصبه الله سبباً. ولقد أحسن القائل:

ما للعباد عليه حقُّ واجبٌ ... كلا ولا سعي لديه ضائعُ
إن عُذبوا فبعَدْله أو نُعِّموا ... فبفضله وهو الكريم الواسعُ

وتارة يقول: بجاه فلان عندك، يقول: نتوسل إليك بأنبيائك ورسلك وأوليائك، ومراده لأن فلاناً عندك ذو وجاهة وشرف ومنزلة فأجب دعاءنا. وهذا أيضاً محذور، فإنه لو كان هذا هو التوسل الذي كان الصحابة يفعلونه في حياة النبي ﷺ لفعلوه بعد موته، وإنما كانوا يتوسلون في حياته بدعائه، يطلبون منه أن يدعو لهم، وهم يؤمّنون على دعائه، كما في الاستسقاء[3]

(١) أخرجه من حديث ابن عمر، أبو داود «٣٢٥١»، والترمذي «١٥٣٥» وحسنه، وأحمد (٢/ ٣٤)، والحاكم (١/ ١٨) وقال صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.
(٢) أخرجه البخاري «٤٢٨٥٦»، ومسلم «٣٠»، والترمذي «٢٦٤٣»، وابن ماجه «٤٢٩٦»، من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه.
(٣) كحديث أنس بن مالك رضي الله عنه الذي فيه: «أن رجلاً دخل يوم الجمعة من باب كان وجاه المنبر ورسول الله ﷺ قائم يخطب فاستقبل رسول الله ﷺ قائماً، =

www.rahmah.de

وغيره. فلما مات ﷺ قال عمر رضي الله عنه لما خرجوا يستسقون: اللهم إنا كنا إذا أجدبنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا،[1] معناه بدعائه هو ربَّه وشفاعته وسؤاله، ليس المراد أنّا نقسم عليك به، أو نسألك بجاهه عندك، إذ لو كان ذلك مراداً لكان جاه النبي ﷺ أعظمَ وأعظمَ من جاه العباس[2].

وتارة يقول: باتباعي لرسولك ومحبتي له وإيماني به وبسائر أنبيائك ورسلك وتصديقي لهم، ونحو ذلك. فهذا من أحسن ما يكون في الدعاء والتوسل والاستشفاع[3].

لفظ التوسل بالشخص فيه إجمال

فلفظ التوسل بالشخص والتوجه به فيه إجمال، غَلِطَ بسببه من لم يفهم معناه، فقد يراد به التسبب به لكونه داعياً وشافعاً، وهذا في حياته يكون، أو لكون الداعي محباً له، مطيعاً لأمره، مقتدياً به، وذلك أهل للمحبة والطاعة

= فقال: يا رسول الله هلكت المواشي، وانقطعت السبل فادع الله يغيثنا. قال فرفع رسول الله ﷺ يديه فقال: اللهم اسقنا، اللهم اسقنا، اللهم اسقنا...» الحديث أخرجه البخاري (٩٣٢، ٩٣٣، ١٠١٣، ١٠١٤، ١٠١٥) ومسلم (٨٩٧)، وأبو داود (١١٧٤)، (١١٧٥)، والنسائي (١٥٠٤)، (١٥١٥)، (١٥١٧).

(١) أخرجه البخاري (١٠١٠)، (٣٧١٠).

(٢) قال بعض المعاصرين ممن يجيزون التوسل بالنبي ﷺ بعد مماته في معرض رده على الاستدلال بعدول الصحابة عن التوسل بالنبي ﷺ بعد مماته إلى التوسل بدعاء العباس رضي الله عنه، قال: «إن عمر لم يتوسل بالعباس إلا لقرابته من رسول الله ﷺ فكأن الأمر رجع عنده إلى التوسل بالنبي ﷺ ويرد هذا الفهم السقيم ما ثبت من استسقاء معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه بيزيد بن الأسود الجرشي، وفيه: فقال معاوية: اللهم إنا نستشفع إليك بيزيد بن الأسود الجرشي، يا يزيد ارفع يديك إلى الله، فرفع يزيد يديه، ورفع الناس أيديهم...» أخرجه ابن سعد في الطبقات (٧/٤٤٤)، وأبو زرعة الدمشقي في تاريخه بسند صحيح كما ذكر الحافظ في تلخيص الحبير (٢/١٠١).

(٣) لأنه توسل من الشخص بعمله هو، وهو هنا اتباعه للرسول ومحبته له وتصديقه إياه.

والاقتداء، فيكون التوسل إما بدعاء الوسيلة وشفاعته، وإما بمحبة السائل واتباعه وقد يراد به الإقسام به والتوسل بذاته، فهذا الثاني هو الذي كرهوه ونهوا عنه.

وكذلك السؤال بالشيء، قد يراد به التسبب به، لكونه سبباً في حصول المطلوب، وقد يراد به الإقسام به.

ومن الأول: حديث الثلاثة الذين أووا إلى الغار، وهو حديث مشهور في «الصحيحين» وغيرهما، فإن الصخرة انطبقت عليهم، فتوسلوا إلى الله بذكر أعمالهم الصالحة الخالصة، وكل واحد منهم يقول: فإن كنتُ فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرُج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون[1] فهؤلاء دعوا الله بصالح الأعمال، لأن الأعمال الصالحة هي أعظم ما يتوسل به العبد إلى الله، ويتوجه به إليه، ويسأله به، لأنه وعد أن يستجيب للذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله.

الشفاعة عند الله ليست كالشفاعة عند البشر

فالحاصل أن الشفاعة عند الله ليست كالشفاعة عند البشر، فإن الشفيع عند البشر كما أنه شافعٌ للطالب شفعه في الطلب، بمعنى أنه صار به شفعاً فيه بعد أن كان وتراً، فهو أيضاً قد شفع المشفوع إليه، فشفاعته صار فاعلاً للمطلوب، فقد شَفَع الطالب والمطلوب منه، والله تعالى وتر، لا يشفعه أحدٌ. فلا يشفعُ عنده أحد إلا بإذنه، فسيد الشفعاء يوم القيامة إذا سجد وحمد الله تعالى فقال له الله: «ارفع رأسك، وسل تعطه، وقل يُسمع، واشفع تشفع» فيحد له حداً فيدخلهم الجنة،[2] فالأمر كله لله.

وفي «الصحيح» أن النبي ﷺ قال: «يا بني عبد مناف، لا أملك لكم

(١) أخرجه البخاري (٢٢١٥)، ومسلم (٢٧٤٣)، وأحمد (٢/١١٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري (٤٤٧٦)، (٦٥٦٥)، (٧٤١٠)، (٧٤٤٠)، ومسلم (١٩٣)، وابن ماجه (٤٣١٢) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

www.rahmah.de

من الله من شيء، يا صفية عمة رسول الله لا أملك لك من الله من شيء، يا عباس عم رسول الله لا أملك لك من الله من شيء»[1]. فإذا كان سيد الخلق وأفضل الشفعاء يقول لأخص الناس به: «لا أملك لكم مِنَ الله من شيء» فما الظن بغيره؟!

(١) أخرجه البخاري «٢٧٥٣»، ومسلم «٢٠٤»، والنسائي «٣٦٤٤»، «٣٦٤٦»، «٣٦٤٧»، من حديث أبي هريرة.

المبحث الخامس
التنبيه على بعض أمور الشرك

(١) الكهانة والعرافة.

(١١ ـ ١١٦) قوله: (ولا نصدق كاهناً ولا عرّافاً[1]، ولا من يدعي شيئاً يخالف الكتاب والسنة، وإجماع الأمة).

ش: روى مسلم والإمام أحمد عن صفية بنت أبي عُبيد، عن بعض أزواج النبي ﷺ عن النبي ﷺ، قال: «من أتى عرّافاً فسأله عن شيء، لم يقبل له صلاة أربعين ليلة»[2]. وروى الإمام أحمد في «مسنده»، عن أبي هريرة،

(١) الكهانة ادعاء علم الغيب كالإخبار بما سيقع في الأرض، والأصل فيه استراق الجن السمع من كلام الملائكة فتلقيه في أذن الكاهن، وهو الآن قليل بالنسبة لما كانوا عليه في الجاهلية لأن الله تعالى حرس السماء بالشهب «انظر تيسير العزيز الحميد ص ٤٠٥، ٤٠٦» وأما العرّاف فهو كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية «اسم للكاهن والمنجم والرمال ونحوهم كالحازر الذي يدعي علم الغيب، أو يدعي الكشف» انظر المصدر السابق ص ٤١٢.

(٢) أخرجه مسلم «٢٢٣٠»، وأحمد «٤/ ٦٨» «٥/ ٣٨٠»، وقال النووي رحمه الله: «وأما عدم قبول صلاته فمعناه أنه لا ثواب له فيها، وإن كانت مجزئة في سقوط الفرض عنه ولا يحتاج معها إلى إعادة، ونظير هذه الصلاة في الأرض المغصوبة مجزئة مسقطة للفرض ولكن لا ثواب فيها، كذا قاله جمهور أصحابنا، قالوا: فصلاة الفرض وغيرها إذا أتى بها على وجهها الكامل ترتب عليها شيئان: سقوط الفرض عنه، وحصول الثواب، فإذا أداها في أرض مغصوبة حصل الأول دون الثاني ولا بد من هذا التأويل في هذا الحديث، فإن العلماء متفقون على أنه لا يلزم =

www.rahmah.de

أن النبي ﷺ قال: «من أتى عرافاً أو كاهناً، فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد[1]». فإذا كانت هذه حال السائل، فكيف بالمسؤول؟

وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «ثمن الكلب خبيث، ومهر البغي خبيث، وحلوان الكاهن خبيث»[2] وحلوانه: الذي تسميه العامة حلاوته. ويدخل في هذا ما يعطاه المنجم وصاحب الأزلام والضارب بالحصى والذي يخط في الرمل.

وفي صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان لأبي بكر غلام يأكل من خراجه، فجاء يوماً بشيء، فأكل منه أبو بكر فقال له الغلام:

= من أتى العراف إعادة صلوات أربعين ليلة فوجب تأويله، والله أعلم. «انظر شرح النووي على صحيح مسلم ١٤/٢٢٧».

(١) أخرجه بهذا اللفظ الحاكم «١/١٨» والبيهقي «٨/١٣٥» من حديث أبي هريرة، وقال الحاكم صحيح على شرطهما، ووافقه الذهبي، وأخرجه أحمد من حديث أبي هريرة والحسن «٢/٤٢٩» بلفظ «من أتى كاهناً أو عرافاً» وأخرجه مع زيادات واختلاف في بعض ألفاظه، أبو داود «٣٩٠٤»، والترمذي «١٣٥» وابن ماجه «٦٣٩»، وأحمد «٢/٤٠٨، ٤٧٦» من حديث أبي هريرة والحديث صحيح كما ذكر الشيخ الألباني في إرواء الغليل «٢٠٠٦»، قال في تيسير العزيز الحميد ص ٤٠٩: قال بعضهم: لا تعارض بين هذا الخبر وبين حديث «من أتى عرافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة» إذ الغرض في هذا الحديث أنه سأله معتقداً صدقه وأنه يعلم الغيب فإنه يكفر، فإن اعتقد أن الجن تلقي إليه ما سمعته من الملائكة أو أنه بإلهام فصدقه من هذه الجهة لا يكفر، كذا قال وفيه نظر وظاهر الحديث أنه يكفر متى اعتقد صدقه بأي وجه كان لاعتقاده أنه يعلم الغيب... إلى أن قال: فإن الحديث الذي فيه الوعيد بعدم قبول الصلاة أربعين ليلة ليس فيه ذكر تصديقه والأحاديث التي فيها إطلاق الكفر مقيدة بتصديقه».

(٢) أخرجه مسلم «١٥٦٨»، من حديث رافع بن خديج بلفظ «ثمن الكلب خبيث، ومهر البغي خبيث، وكسب الحجام خبيث» وأخرجه أبو داود «٣٤٢١»، والترمذي «١٢٧٥»، وأخرج البخاري «٢٢٣٧»، ومسلم «١٥٦٧»، وأبو داود «٣٤٢٨»، والترمذي «١٢٧٦»، «٢٠٧١»، وابن ماجه «٢١٥٩» من حديث أبي مسعود الأنصاري: «أن رسول الله ﷺ نهى عن ثمن الكلب، ومهر البغي، وحلوان الكاهن».

تدري ممّ هذا؟ قال: وما هو؟ قال: كنت تكهنت لإنسان في الجاهلية، وما أحسن الكهانة، إلا أني خدعته، فلقيني، فأعطاني بذلك، فهذا الذي أكلت منه، فأدخل أبو بكر يده فقاء كل شيء في بطنه[1].

(٢) التنجيم[2].

والمنجم يدخل في اسم «العراف» عند بعض العلماء، وعند بعضهم هو في معناه.

وفي «الصحيحين» عن زيد بن خالد، قال: خطبنا رسول الله ﷺ بالحديبية، على إثر سماء كانت من الليل، فقال: «أتدرون ماذا قال ربكم الليلة؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مُطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي، كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي، مؤمن بالكوكب»[3].

وفي «صحيح مسلم ومسند الإمام أحمد»، عن أبي مالك الأشعري أن النبي ﷺ قال: «أربع في أمتي من أمر الجاهلية، لا يتركونهن: الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة»[4].

---

(١) أخرجه البخاري «٣٨٤٢».

(٢) قال الخطابي في معالم السنن: «علم النجوم المنهي عنه هو ما يدعيه أهل التنجيم من علم الكوائن والحوادث التي لم تقع وستقع في مستقبل الزمان كإخبارهم بأوقات هبوب الرياح، ومجيء المطر، وظهور الحر والبرد وتغير الأسعار، وما كان في معانيها من الأمور يزعمون أنهم يدركون معرفتها بسير الكواكب في مجاريها وباجتماعها واقترانها ويدّعون أن لها تأثيراً في المخلوقات وأنها تتصرف على أحكامها وتجري على قضايا موجباتها وهذا منهم تحكم على الغيب وتعاط لعلم استأثر الله سبحانه به، فأما علم النجوم الذي يدرك من طريق المشاهدة والحس كالذي يعرف به الزوال ويعلم به جهة القبلة فإنه غير داخل فيما نهي عنه». هـ انظر معالم السنن بهامش سنن أبي داود ٤/٢٢٦.

(٣) أخرجه البخاري «٨٤٦»، ومسلم «٧١»، وأبو داود «٣٩٠٦»، والنسائي «١٥٢٥».

(٤) أخرجه مسلم «٩٣٤»، وأحمد «٥/٣٤٢»، والحاكم «١/٣٨٣» بلفظ «والاستسقاء بالنجوم» وعبد الرزاق «٦٦٨٦» بلفظ «والاستسقاء بالأنواء» والمراد بالاستسقاء =

www.rahmah.de

والمنصوص عن النبي ﷺ وأصحابه وسائر الأئمة، بالنهي عن ذلك أكثر من أن يتسع هذا الموضع لذكرها. وصناعة التنجيم، التي مضمونها الإحكام والتأثير، وهو الاستدلال على الحوادث الأرضية بالأحوال الفلكية أو التمزيج بين القوى الفلكية والقوابل[1] الأرضية: صناعة محرمة بالكتاب والسنة، بل هي محرمة على لسان جميع المرسلين.

(٣) الشعوذة والدجل.

والذين يفعلون الأفعال الخارجة عن الكتاب والسنة منهم: أهل تلبيس وكذب وخداع، الذين يظهر أحدهم طاعة الجن له، أو يدعي الحال من أهل المحال، من المشايخ النصابين، والفقراء الكذابين، والطرقية المكارين، فهؤلاء يستحقون العقوبة البليغة التي تردعهم وأمثالهم عن الكذب والتلبيس. وقد يكون في هؤلاء من يستحق القتل كمن يدعي النبوة بمثل هذه الخزعبلات أو يطلب تغيير شيء من الشريعة.

(٤) السحر:

قال تعالى: ﴿ولا يفلح الساحر حيث أتى﴾ [طه: ٦٩]. وقال تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت﴾ [النساء: ٥١]. قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه وغيره: الجبت: السحر[2]. وجمهور العلماء يوجبون قتل الساحر، كما هو مذهب أبي حنيفة

= بالأنواء كما في تيسير العزيز الحميد ص ٤٥١: نسبة السقيا ومجيء المطر إلى الأنواء جمع نوء وهي منازل القمر، قال أبو السعادات: وهي ثمان وعشرون منزلة ينزل القمر كل ليلة منزلة منها ومنه قوله تعالى: ﴿والقمر قدرناه منازل﴾ [يس: ٣٩]. يسقط في الغرب كل ثلاث عشرة ليلة منزلة مع طلوع الفجر وتطلع أخرى مقابلتها ذلك الوقت في الشرق فتنقضي جميعها مع انقضاء السنة، وكانت العرب تزعم أن مع سقوط المنزلة وطلوع رقيبها يكون مطر وينسبونه إليها فيقولون: مطرنا بنوء كذا وإنما سمي نوءاً لأنه إذا سقط الساقط منها بالمغرب ناء الطالع بالمشرق بنوء نوءاً أي نهض وطلع»ا.هـ.

(١) في الأصل «الغوائل»، والمثبت من مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية «٣٥/ ١٩٢».

(٢) أخرجه الطبري في التفسير «٩٧٦٦، ٩٧٦٧» من طريق حسان بن فائد قال: =

ومالك وأحمد في المنصوص عنه، وهذا هو المأثور عن الصحابة، كعمر وابنه وعثمان وغيرهم. ثم اختلف هؤلاء: هل يستتاب أم لا؟ وهل يكفر بالسحر؟ أم يقتل لسعيه في الأرض بالفساد؟ وقال طائفة: إن قَتل بالسحر قُتل، وإلا عوقب بدون القتل، إذا لم يكن في قوله وعمله كفر، وهذا هو المنقول عن الشافعي، وهو قول في مذهب أحمد.

وقد تنازع العلماء في حقيقة السحر[1] وأنواعه، والأكثرون يقولون: إنه قد يؤثر في موت المسحور ومرضه من غير وصول شيء ظاهر إليه، وزعم بعضهم أنه مجرد تخييل. واتفقوا كلهم على أن ما كان من جنس دعوة الكواكب السبعة، أو غيرها، أو خطابها، أو السجود لها، والتقرب إليها بما يناسبها من اللباس والخواتم والبخور ونحو ذلك فإنه كفر، وهو من أعظم أبواب الشرك، فيجب غلقه، بل سدُّه.

(٥) الرقى الشركية:

واتفقوا كلهم أيضاً على أن كل رقية وتعزيم أو قسم، فيه شرك بالله، فإنه لا يجوز التكلم به، وإن أطاعته به الجن أو غيرهم، وكذلك كل كلام

= قال عمر رحمه الله: «الجبت: السحر، والطاغوت: الشيطان» قال الشيخ شاكر: حسان بن فائد العبسي روى عنه أبو إسحق السبيعي. قال أبو حاتم: شيخ. وقال البخاري: يعد في الكوفيين وذكره ابن حبان في ثقات التابعين. مترجم في التهذيب والكبير ٢/ ١/ ٢٨ وابن أبي حاتم «١/ ٢/ ٢٣٣».ا.هـ.

(١) نقل النووي في شرح مسلم «١٤/ ١٧٤» عن المازري قوله «مذهب أهل السنة وجمهور علماء الأمة على إثبات السحر، وأن له حقيقة كحقيقة غيره من الأشياء الثابتة خلافاً لمن أنكر ذلك ونفى حقيقته... وقد ذكره الله في كتابه، وذكر أنه مما يتعلم، وذكر ما فيه إشارة إلى أنه مما يكفر به، وأنه يفرق بين المرء وزوجه، وهذا كله لا يمكن فيما لا حقيقة له، وهذا الحديث أيضاً - يقصد حديث سحر النبي ﷺ - مصرح بإثباته وأنه أشياء دفنت وأخرجت... ولا يستنكر في العقل أن الله سبحانه وتعالى يخرق العادة عند النطق بكلام ملفق أو تركيب أجسام أو المزج بين قوى على ترتيب لا يعرفه إلا الساحر، وإذا شاهد الإنسان بعض الأجسام منها قاتلة كالسموم، ومنها مسقمة كالأدوية الحادة... لم يستبعد عقله أن ينفرد الساحر بعلم قوى قتالة أو كلام مهلك أو مؤدٍّ إلى التفرقة».

www.rahmah.de

فيه كفر لا يجوز التكلم به، وكذلك الكلام الذي لا يعرف معناه لا يتكلم به، لإمكان أن يكون فيه شرك لا يعرف. ولهذا قال النبي ﷺ: «لا بأس بالرقى ما لم تكن شركاً»[1].

(٦) الاستعاذة بالجن:

ولا يجوز الاستعاذة بالجن، فقد ذم الله الكافرين على ذلك، فقال تعالى: ﴿**وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً**﴾ [الجن: ٦]. قالوا: كان الإنسي إذا نزل بالوادي يقول: أعوذ بعظيم هذا الوادي من سفهائه، فيبيت في أمن وجوار حتى يصبح، ﴿**فزادوهم رهقاً**﴾ يعني الإنس للجن، باستعاذتهم بهم، رهقاً، أي إثماً وطغياناً وجراءة وشراً، وذلك أنهم قالوا: قد سُدْنا الجنّ، والإنس! فالجنُّ تَعاظم في أنفسها وتزداد كفراً إذا عاملتها الإنس بهذه المعاملة[2] وقد قال تعالى: ﴿**ويوم يحشرهم جميعاً، ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون. قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم، بل كانوا يعبدون الجن، أكثرهم بهم مؤمنون**﴾ [سبأ: ٤٠ ـ ٤١]. فهؤلاء الذين يزعمون أنهم يدعون الملائكة ويخاطبونهم بهذه العزائم، وأنها تنزّل عليهم: ضالون، وإنما تنزّل عليهم الشياطين. وقد قال تعالى: ﴿**ويوم يحشرهم جميعاً، يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس، وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا، قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله، إنَّ ربك حكيم عليم**﴾ [الأنعام: ١٢٨]. فاستمتاع الإنسي بالجني: في قضاء حوائجه، وامتثال أوامره، وإخباره بشيء من المغيبات، ونحو ذلك، واستمتاع الجنّ بالإنس: تعظيمه إياه، واستعانته به، واستغاثته وخضوعه له.

(١) أخرجه مسلم «٢٢٠٠»، وأبو داود «٣٨٨٦» من حديث عوف بن مالك الأشجعي.

(٢) وقد أبدلنا الله تعالى بتلك الاستعاذة الشركية ما ورد في حديث خولة بنت حكيم السلمية: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من نزل منزلاً ثم قال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك» أخرجه مسلم «٢٧٠٨» والترمذي «٣٤٣٧» وابن ماجه «٣٥٤٧» ومالك «٢/ ٩٧٨».

(٧) القول بالحقيقة والشريعة:

قال النبي ﷺ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»[1] وفي رواية: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد». فلا طريقة إلا طريقة الرسول ﷺ، ولا حقيقة إلا حقيقته، ولا شريعة إلا شريعته، ولا عقيدة إلا عقيدته، ولا يصل أحد من الخلق بعده إلى الله وإلى رضوانه وجنته وكرامته إلا بمتابعته باطناً وظاهراً. ومن لم يكن له مصدقاً فيما أخبر، ملتزماً لطاعته فيما أمر، في الأمور الباطنة التي في القلوب، والأعمال الظاهرة التي على الأبدان: لم يكن مؤمناً، فضلاً عن أن يكون ولياً لله تعالى، ولو حصل له من الخوارق ماذا عسى أن يحصل!!

فمن اعتقد في بعض البله أو المولعين ـ مع تركه لمتابعة الرسول في أقواله وأفعاله وأحواله ـ أنه من أولياء الله، ويفضله على متبعي طريقة الرسول ﷺ فهو ضال مبتدع، مخطىء في اعتقاده. فإن ذلك الأبله، إما أن يكون شيطاناً زنديقاً أو زُوكارِيّاً[2] متحيلاً أو مجنوناً معذوراً! فكيف يفضل على من هو من أولياء الله المتبعين لرسوله؟! أو يساوى به؟! ولا يقال: يمكن أن يكون هذا متبعاً في الباطن وإن كان تاركاً للاتباع في الظاهر؟ فإن هذا خطأ أيضاً، بل الواجب متابعة الرسول ﷺ ظاهراً وباطناً. قال يونس بن عبد الأعلى الصَّدَفي: قلت للشافعي: إن صاحبنا الليث كان يقول: إذا رأيتم الرجل يمشي على الماء فلا تعتبروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة. فقال الشافعي: قصَّر الليث رحمه الله، بل إذا رأيتم الرجل يمشي على الماء ويطير في الهواء فلا تعتبروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة.

(١) أخرجه البخاري «٢٦٩٧» ومسلم «١٧١٨» وأبو داود «٤٦٠٦» وابن ماجه «١٤» من حديث عائشة.

(٢) قال الشيخ أحمد شاكر ص «٤٣٧»: هذه لفظة مولدة. وفي شرح القاموس «٣: ٢٤٠» الزواكرة: من يتلبس فيظهر النسك والعبادة، ويبطن الفسق والفساد. نقله المقري في «نفح الطيب».

www.rahmah.de

والطائفة الملامية[1]، وهم الذين يفعلون ما يلامون عليه، ويقولون نحن متبعون في الباطن، ويقصدون إخفاء المرائين! ردوا باطلهم بباطل آخر!!.

وأما الذين يتعبدون بالرياضات والخلوات، ويتركون الجمع والجماعات، فهم من الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا، وهم يحسبون أنهم يحسنون صُنعاً،قد طبع الله على قلوبهم. كما قد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «من ترك ثلاث جمع تهاوناً من غير عذر، طبع الله على قلبه»[2]. وكل من عدل عن اتباع سنة الرسول، إن كان عالماً بها فهو مغضوب عليه، وإلا فهو ضال.

وأما من يتعلق بقصة موسى مع الخضر عليه السلام، في تجويز الاستغناء عن الوحي بالعلم اللدُني، الذي يدعيه بعض من عدم التوفيق: فهو ملحد زنديق. فإن موسى عليه السلام لم يكن مبعوثاً إلى الخضر، ولم يكن الخضر مأموراً بمتابعته. ولهذا قال له: أنت موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم[3]. ومحمد ﷺ مبعوث إلى جميع الثقلين، وإذا نزل عيسى عليه السلام إلى الأرض، إنما يحكم بشريعة محمد، فمن ادعى أنه مع محمد ﷺ كالخضر مع موسى، أو جوّز ذلك لأحد من الأمة: فليجدد إسلامه، وليشهد شهادة الحق، فإنه مفارق لدين الإسلام بالكلية، فضلاً عن أن يكون من أولياء الله، وإنما هو من أولياء الشيطان. وهذا الموضع مفرق بين زنادقة القوم وأهل الاستقامة، فحرك تر. وكذا من يقول بأن الكعبة تطوف برجال

(١) ذكر ابن الجوزي في تلبيس إبليس ص ٤٧٨: أنهم طائفة من الصوفية يقتحمون الذنوب ويقولون مقصودنا أن نسقط من أعين الناس فنسلم من الجاه.

(٢) أخرجه أبو داود «١٠٥٢» والترمذي «٥٠٠» وحسنه، والنسائي «١٣٦٩»؛ وابن ماجه «١١٢٥»؛ وأحمد «٣/٤٢٤» من حديث أبي الجعد الضمري وقال الشيخ الألباني ص ٥١١: وسنده حسن وله شواهد في الترغيب وغيره.

(٣) هو قطعة من حديث الخضر مع موسى، وقد أخرجه البخاري «٧٤»، «٧٨»، «١٢٢»، «٣٤٠١»؛ ومسلم «٢٣٨٠»؛ والترمذي «٣١٤٨» من حديث أبي بن كعب.

منهم حيث كانوا!! فهلا خرجت الكعبة إلى الحديبية فطافت برسول الله ﷺ حين أحصر عنها، وهو يودُّ منها نظرة؟!

وجوب السعي في إزالة تلك المنكرات:

والواجب على ولي الأمر وكل قادر أن يسعى في إزالة هؤلاء المنجمين والكهان والعرّافين وأصحاب الضرب بالرمل والحصى، ومنعهم من الجلوس في الحوانيت أو الطرقات، أو أن يدخلوا على الناس في منازلهم لذلك. ويكفي من يعلم تحريم ذلك ولا يسعى في إزالته، مع قدرته على ذلك ـ قوله تعالى: ﴿**كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون**﴾ [المائدة: ٧٩]. وهؤلاء الملاعين يقولون الإثم ويأكلون السحت، بإجماع المسلمين. وثبت في «السنن» عن النبي ﷺ برواية الصديق رضي الله عنه أنه قال: «إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه»[1].

(١) أخرجه أبو داود «٤٣٣٨» والترمذي «٢١٦٨، ٣٠٥٧» وابن ماجه «٤٠٠٥» وأحمد «١/٢، ٥» وقال الترمذي: حسن صحيح وصححه النووي في رياض الصالحين «٢٠٢».

www.rahmah.de

النوع الثالث: توحيد الأسماء والصفات

المبحث الأول:

منهج أهل السنة في توحيد الصفات

(١) إثبات الصفات، والرد على المعطلة

(١٢ ـ ٢) قوله: (ولا شيء مثله)[١].

ش: اتفق أهل السنة على أن الله ليس كمثله شيء، لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله. ولكن لفظ التشبيه قد صار في كلام الناس لفظاً مجملاً يراد به المعنى الصحيح، وهو ما نفاه القرآن ودل عليه العقل، من أن خصائص الرب تعالى لا يوصف بها شيء من المخلوقات، ولا يماثله شيء من المخلوقات في شيء من صفاته، ويراد به أنه لا يثبت لله شيء من الصفات، فلا يقال: له قدرة، ولا علم، ولا حياة، لأن العبد موصوف بهذه الصفات!، وهم يوافقون أهل السنة على أنه موجود، عليم قدير، حي. والمخلوق يقال له: موجود حي عليم قدير، ولا يقال: هذا تشبيه يجب نفيه، وهذا مما دل عليه الكتاب والسنة وصريح العقل، ولا يخالف فيه عاقل.

(١) أهل السنة والجماعة يثبتون لله ما أثبته لنفسه وما أثبته له رسوله ﷺ من غير تعطيل ولا تشبيه، فلا يشبهون الله بشيء من خلقه ولا ينفون عن الله صفة ثبتت بالكتاب والسنة، فهم وسط بين المشبهة والمعطلة النفاة.

نقاش مع نفاة الصفات:[١]

أ ـ مع الأشاعرة:

إن من نفى صفة من صفاته التي وصف الله بها نفسه كالرضى والغضب، والمحبة والبغض، ونحو ذلك، وزعم أن ذلك يستلزم التشبيه والتجسيم! قيل له: فأنت تثبت له الإرادة والكلام والسمع والبصر، مع أن ما تثبته له ليس مثل صفات المخلوقين، فقل فيما نفيته وأثبته الله ورسوله مثل قولك فيما أثبتُه، إذ لا فرق بينهما.

ب ـ مع المعتزلة:

فإن قال: أنا لا أثبت شيئاً من الصفات! قيل له: فأنت تثبت له الأسماء الحسنى، مثل: حي، عليم، قدير. والعبد يسمى بهذه الأسماء، وليس ما يثبت للرب من هذه الأسماء مماثلاً لما يثبت للعبد فقل في صفاته نظير قولك في مسمى أسمائه.

ج ـ مع الجهمية ومن وافقهم:

فإن قال: وأنا لا أثبت له الأسماء الحسنى، بل أقول: هي مجاز وهي أسماء لبعض مبتدعاته، كقول غلاة الباطنية والمتفلسفة!

قيل له: فلا بد أن تعتقد أنه موجود حق، قائم بنفسه، والجسم موجود قائم بنفسه، وليس هو مماثلاً له.

(١) نفاة الصفات من المنتسبين لأهل القبلة طوائف ثلاث: «فالأولى» طائفة الأشاعرة ومن تبعهم، وهم يثبتون لله عز وجل سبع صفات يسمونها صفات المعاني، وهي «الحياة، والعلم، والقدرة، والإرادة، والسمع، والبصر، والكلام» ولا يثبتون ما عدا ذلك من الصفات بل يؤولونها فيقولون إن المقصود باليد القدرة، وبالوجه الثواب، ونحو ذلك. «والثانية» طائفة المعتزلة، وهم ينفون جميع الصفات ويثبتون الأسماء فالله عندهم عليم بلا علم، وقدير بلا قدرة، وحي بلا حياة... إلخ. «والثالثة» طائفة الجهمية وهم ينفون الأسماء والصفات جميعاً «انظر شرح الواسطية لخليل هراس ص ١٠٦» والشارح هنا يناقش تلك الطوائف الثلاث على الترتيب.

www.rahmah.de

أصل الخطأ في هذه المسألة:

وأصل الخطأ والغلط: توهمهم أن هذه الأسماء العامة الكلية يكون مسماها المطلق الكلي هو بعينه ثابتاً في هذا المعين وهذا المعين، وليس كذلك، فإن ما يوجد في الخارج لا يوجد مطلقاً كلياً، لا يوجد إلا معيناً مختصاً، وهذه الأسماء إذا سمي الله بها كان مسماها معيَّناً مختصاً به، فإذا سمي بها العبد كان مسماها مختصاً به.

وبهذا ومثله يتبين لك أن المشبهة أخذوا هذا المعنى وزادوا فيه على الحق فضلُّوا، وأن المعطلة أخذوا نفي المماثلة بوجه من الوجوه. وزادوا فيه على الحق حتى ضلوا. وأن كتاب الله دل على الحق المحض الذي تعقله العقول السليمة الصحيحة، وهو الحق المعتدل الذي لا انحراف فيه.

فالنفاة أحسنوا في تنزيه الخالق سبحانه عن التشبيه بشيء من خلقه، ولكن أساؤوا في نفي المعاني الثابتة لله تعالى في نفس الأمر.

والمشبهة أحسنوا في إثبات الصفات، ولكن أساؤوا بزيادة التشبيه.

لا يعلم كيف هو إلا هو.

(١٣ ـ ٨) قوله: (لا تبلغه الأوهام، ولا تدركه الأفهام)

ش: قال تعالى: ﴿ولا يحيطون به علماً﴾ [طه: ١١٠]، قال في «الصحاح»: توهمت الشيء ظننته، وفهمت الشيء علمته. فمراد الشيخ رحمه الله: أنه لا ينتهي إليه وهم، ولا يحيط به علم. قيل: الوهم ما يرجى كونه، أي: يظن أنه على صفة كذا، والفهم: هو ما يحصِّله العقل ويحيط به. والله تعالى لا يعلم كيف هو إلا هو سبحانه وتعالى، وإنما نعرفه بصفاته، وهو أنه أحد، صمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.

(٢) الرد على المشبهة

(١٤ ـ ٩) قوله: (ولا يشبه الأنام)

ش: هذا رد لقول المشبِّهة، الذين يشبهون الخالق بالمخلوق، سبحانه وتعالى، قال عز وجل: ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ [الشورى:

١١]. وليس المراد نفي الصفات كما يقول أهل البدع، فمن كلام أبي حنيفة رحمه الله في «الفقه الأكبر»: لا يشبه شيئاً من خلقه، ولا يشبهه شيء من خلقه. ثم قال بعد ذلك: وصفاته كلها خلاف صفات المخلوقين، يعلم لا كعلمنا، ويقدر لا كقدرتنا، ويرى لا كرؤيتنا[1]. انتهى. وقال نعيم بن حماد[2]: من شبه الله بشيء من خلقه فقد كفر، ومن أنكر ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه.

وقال خلق كثير من أئمة السلف: علامة الجهمية تسميتهم أهل السنة مشبهة، فإنه ما من أحد من نفاة شيء من الأسماء والصفات إلا يسمي المثبت لها مشبهاً.

ولهذا كُتُب نفاة الصفات ـ من الجهمية والمعتزلة والرافضة ونحوهم ـ كلها مشحونة بتسمية مثبتة الصفات مشبهة ومجسمة، ويقولون في كتبهم: إن من جملة المجسمة قوماً يقال لهم: المالكية، ينسبون إلى رجل يقال له: مالك بن أنس، وقوماً يُقال لهم الشافعية، ينسبون إلى رجل يقال له: محمد بن إدريس!! حتى الذين يفسرون القرآن منهم، كعبد الجبار، والزمخشري، وغيرهما، يسمون كل من أثبت شيئاً من الصفات وقال بالرؤية، مشبهاً، وهذا الاستعمال قد غلب عند المتأخرين من غالب الطوائف[3].

---

(١) عزاه المحقق (ص٨٥) إلى الفقه الأكبر بشرح علي القاري ص ١٥، ٣١، ٣٢.

(٢) هو الإمام الشهير أبو عبد الله الخزاعي المروزي الفرضي الأعور.. روى عنه البخاري مقروناً بآخر، والدارمي وأبو حاتم.. وكان شديد الرد على الجهمية، وكان يقول: كنت جهمياً فلذلك عرفت كلامهم، فلما طلبت الحديث، علمت أن مآلهم إلى التعطيل. قال الخطيب: يقال أنه أول من جمع المسند، وقال أحمد بن حنبل والعجلي: ثقة، وقال أبو حاتم: محله الصدق، وقال النسائي: «ضعيف، حمل من مصر مع الفقيه أبي يعقوب البويطي إلى بغداد في محنة القرآن، مقيدين! فحبسا بسامرا حتى مات نعيم سنة ثمان وعشرين ومائتين» (تذكرة الحفاظ ٢/٤١٩ ـ ٤٢٠). وقوله المذكور أورده الذهبي في العلو (انظر مختصر العلو ص ١٨٤).

(٣) وما أحسن ما أورده ابن القيم في رده على هؤلاء:

فإن كان تجسيماً ثبوت استوائه ... على عرشه إني إذاً لمجسم

وإن كان تشبيهاً ثبوت صفاته ... فمن ذلك التشبيه لا أتكتم

www.rahmah.de

ولكن المشهور من استعمال هذا اللفظ عند علماء السنة المشهورين: أنهم لا يريدون بنفي التشبيه نفي الصفات، ولا يصفون به كل من أثبت الصفات. بل مرادهم أنه لا يشبه المخلوق في أسمائه وصفاته وأفعاله، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ [الشورى: ١١]، فنفى المثل وأثبت الوصف.

نوعا التشبيه:

التشبيه نوعان: تشبيه الخالق بالمخلوق، وهذا الذي ينعب أهل الكلام في ردّه وإبطاله، وأهله في الناس أقل من النوع الثاني، الذين هم أهل تشبيه المخلوق بالخالق، كعبّاد المشايخ، وعزير، والشمس، والقمر، والأصنام، والملائكة، والنار، والماء، والعجل، والقبور، والجن، وغير ذلك.

وهؤلاء هم الذين أرسلت إليهم الرسل يدعونهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له.

(٣) النفي والتشبيه من أمراض القلوب

(١٥ ـ ٤٤) قوله: (ومن لم يتوقَّ النفي والتشبيه، زل ولم يصب التنزيه).

ش: النفي والتشبيه مرضان من أمراض القلوب، فإن أمراض القلوب نوعان: مرض شبهة، ومرض شهوة.

والشبهة التي في مسألة الصفات نفيها وتشبيهها، وشبهة النفي أردأ من شبهة التشبيه، فإن شبهة النفي ردّ وتكذيب لما جاء به الرسول ﷺ، وشبهة التشبيه غلو ومجاوزة للحد فيما جاء به الرسول ﷺ.

= وإن كان تنزيهاً جحود استوائه ... وأوصافه أو كونه يتكلم
فنحن ذلك التنزيه نزهت ربنا ... بتوفيقه والله أعلى وأعظم
(مختصر الصواعق المرسلة ص ١١٠)

وتشبيه الله بخلقه كفر فإن الله تعالى يقول: ﴿ليس كمثله شيء﴾ [الشورى: ١١]، ونفي الصفات كفر، فإن الله تعالى يقول: ﴿وهو السميع البصير﴾ [الشورى: ١١]، وقوله: ﴿ليس كمثله شيء﴾ ردّ على المشبهة. وقوله تعالى: ﴿وهو السميع البصير﴾ ردّ على المعطلة.

فمن أضل ممن يستدل بقوله: ﴿ليس كمثله شيء﴾ على نفي الصفات ويعمى عن تمام الآية وهو قوله: ﴿وهو السميع البصير﴾، حتى أفضى هذا الضلال ببعضهم، وهو أحمد بن أبي دُوَاد القاضي، إلى أن أشار على الخليفة المأمون أن يكتب على ستر الكعبة: ليس كمثله شيء وهو العزيز الحكيم، حرّف كلام الله لينفي وصفه تعالى بأنه السميع البصير. كما قال الضالّ الآخر، جهم بن صفوان: وددت أني أحُكُّ من المصحف قوله تعالى: ﴿ثم استوى على العرش﴾ [الأعراف: ٥٤]. فنسأل الله العظيم السميع البصير أن يثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، بمنّه وكرمه.

وما أحسن المثل المضروب للمثبت للصفات من غير تشبيه ولا تعطيل: باللبن الخالص السائغ للشاربين، يخرج من بين فرث التعطيل ودم التشبيه. والمعطل يعبد عدماً، والمشبه يعبد صنماً.

تنزيه الرب بالذي هو وصفه

(١٦ ـ ٤٥) قوله: (فإن ربنا جل وعلا موصوف بصفات الوحدانية، منعوت بنعوت الفردانية، ليس في معناه أحد من البرية).

ش: يشير الشيخ رحمه الله إلى أن تنزيه الرب تعالى بالذي هو وصفه كما وصف نفسه نفياً وإثباتاً. وكلام الشيخ مأخوذ من معنى سورة الإخلاص. فقوله موصوف بصفات الوحدانية مأخوذ من قوله تعالى: ﴿قل هو الله أحد﴾ [الإخلاص: ١]. وقوله: منعوت بنعوت الفردانية من قوله تعالى: ﴿الله الصمد. لم يلد ولم يولد﴾ [الإخلاص: ٢ ـ ٣]. وقوله: ليس في معناه أحد من البرية من قوله تعالى: ﴿ولم يكن له كفواً أحد﴾

www.rahmah.de

[الإخلاص: ٤]. وهو أيضاً مؤكد لما تقدم من إثبات الصفات ونفي التشبيه.

(٤) أزلية صفات الله وأبديتها

(١٧ ـ ١٣) قوله: (ما زال بصفاته قديماً قبل خلقه، لم يزدد بكونهم شيئاً لم يكن قبلهم من صفته، وكما كان بصفاته أزلياً، كذلك لا يزال عليها أبدياً).

ش: أي: أن الله سبحانه وتعالى لم يزل متصفاً بصفات الكمال: صفات الذات وصفات الفعل[1]. ولا يجوز أن يعتقد أن الله وُصف بصفة بعد أن لم يكن متصفاً بها، لأن صفاته سبحانه صفات كمال، وفقدها صفة نقص، ولا يجوز أن يكون قد حصل له الكمال بعد أن كان متصفاً بضده. ولا يرد على هذا صفات الفعل والصفات الاختيارية ونحوها، كالخلق والتصوير، والإحياء والإماتة، والقبض والبسط والطي، والاستواء والإتيان والمجيء والنزول، والغضب والرضى، ونحو ذلك، وإن كانت هذه الأحوال تحدث في وقت دون وقت، لأن هذا الحدوث بهذا الاعتبار غير ممتنع، ولا يطلق عليه أنه حدث بعد أن لم يكن، ألا ترى أن من تكلم اليوم وكان متكلماً بالأمس لا يقال: إنه حدث له الكلام، ولو كان غير متكلم لآفة كالصغر، والخرس، ثم تكلم يقال: حدث له الكلام، فالساكت لغير آفة يسمى متكلماً بالقوة، بمعنى أنه يتكلم إذا شاء، وفي حال تكلمه يسمى متكلماً بالفعل، وكذلك الكاتب في حال الكتابة هو كاتب بالفعل، ولا يخرج عن كونه كاتباً في حال عدم مباشرته للكتابة.

وحلول الحوادث بالرب تعالى، المنفي في علم الكلام المذموم، لم

(١) صفات الذات هي صفاته التي لا تنفك عنها ذاته سبحانه ولا تتعلق بها مشيئته تعالى وقدرته كصفات الحياة والعلم والقدرة والعزة والملك... الخ.
وصفات الفعل هي صفاته التي تتعلق بها مشيئته وقدرته في كل وقت وآن وتحدث آحاد تلك الصفات متى شاء سبحانه فهذه الصفات نوعها أزلي لا أول له وأفرادها حادثة مثل كونه تعالى يتكلم ويغضب ويرضى ويضحك ونحو ذلك. [من شرح الواسطية لهراس ص ١٠٥ بتصرف].

يرد نفيه ولا إثباته في كتاب ولا سنة، وفيه إجمال:

فإن أريد أنه سبحانه لا يحل في ذاته المقدسة شيء من مخلوقاته المحدثة، أو لا يحدث له وصف متجدد لم يكن فهذا نفي صحيح. وإن أريد به نفي الصفات الاختيارية، من أنه لا يفعل ما يريد، ولا يتكلم بما شاء إذا شاء، ولا أنه يغضب ويرضى لا كأحد من الورى، ولا يوصف بما وصف به نفسه من النزول والاستواء والإتيان كما يليق بجلاله وعظمته فهذا نفي باطل.

والشيخ رحمه الله أشار بقوله: ما زال بصفاته قديماً قبل خلقه إلى آخر كلامه إلى الرد على المعتزلة والجهمية ومن وافقهم من الشيعة. فإنهم قالوا: إنه تعالى صار قادراً على الفعل والكلام بعد أن لم يكن قادراً عليه، لكونه صار الفعل والكلام ممكناً بعد أن كان ممتنعاً، وأنه انقلب من الامتناع الذاتي إلى الإمكان الذاتي! وعلى ابن كُلاّب والأشعري ومن وافقهما، فإنهم قالوا: إن الفعل صار ممكناً له بعد أن كان ممتنعاً منه. وأما الكلام عندهم[1] فلا يدخل تحت المشيئة والقدرة، بل هو شيء واحد لازم لذاته.

(٥) تنزيه الله عن الحدود والغايات والأعضاء

(١٨ ـ ٤٦) قوله: (وتعالى عن الحدود والغايات، والأركان والأعضاء والأدوات، لا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات).

ش: أذكر بين يدي الكلام على عبارة الشيخ رحمه الله مقدمة، وهي: أن الناس في إطلاق مثل هذه الألفاظ ثلاثة أقوال: فطائفة تنفيها، وطائفة تثبتها، وطائفة تفصّل، وهم المتبعون للسلف، فلا يطلقون نفيها ولا إثباتها إلا إذا بُيّن، ما أثبت بها فهو ثابت، وما نُفي بها فهو منفي. لأن المتأخرين قد صارت هذه الألفاظ في اصطلاحهم فيها إجمال و إبهام.

(١) أي عند الأشعري وابن كلاب ومن وافقهما، وسيأتي بيان قولهما في الكلام عند الحديث عن صفة الكلام ـ إن شاء الله ـ.

www.rahmah.de

فالواجب أن ينظر في هذا الباب، أعني باب الصفات، فما أثبته الله ورسوله أثبتناه، وما نفاه الله ورسوله نفيناه. والألفاظ التي ورد بها النص يعتصم بها في الإثبات والنفي. وأما الألفاظ التي لم يرد نفيها ولا إثباتها فلا تطلق حتى ينظر في مقصود قائلها: فإن كان معنى صحيحاً قُبل، لكن ينبغي التعبير عنه بألفاظ النصوص، دون الألفاظ المجملة إلا عند الحاجة مثل أن يكون الخطاب مع من لا يتم المقصود معه إن لم يخاطب بها ونحو ذلك.

مراد المصنف من هذا الكلام:

والشيخ رحمه الله أراد الرد بهذا الكلام على المشبهة، كداود الجواربي[1] وأمثاله القائلين: إن الله جسم، وإنه جثة وأعضاء وغير ذلك! تعالى الله عما يقولون علوّاً كبيراً. فالمعنى الذي أراده الشيخ رحمه الله من النفي الذي ذكره هنا حق ولكن حدث بعده من أدخل في عموم نفيه حقّاً وباطلاً، فيحتاج إلى بيان ذلك. وهو: أن السلف متفقون على أن البشر لا يعلمون لله حدّاً، وأنهم لا يحدون شيئاً من صفاته. قال أبو داود الطيالسي: كان سفيان وشعبة وحماد بن زيد وحماد بن سلمة وشريك وأبو عوانة لا يحدون ولا يشبهون ولا يمثلون، يروون الحديث ولا يقولون: كيف؟ وإذا سئلوا قالوا بالأثر[2].

الخطأ في فهم النفي السابق:

وأما لفظ الأركان والأعضاء والأدوات فيتسلط بها النفاة على نفي بعض الصفات الثابتة بالأدلة القطعية، كاليد والوجه. قال أبو حنيفة رضي الله عنه في «الفقه الأكبر»: له يد ووجه ونفس، كما ذكر تعالى في القرآن من ذكر اليد والوجه والنفس، فهو له صفة بلا كيف، ولا

(١) داود الجواربي رأس في الرفض والتجسيم، كان يزعم أن ربه لحم ودم على صورة الإنسان قال يزيد بن هارون: الجواربي والمريسي كافران. «لسان الميزان ٢/ ٤٢٧».

(٢) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات «٢/ ١٦٩» وتمامه «قال أبو داود: وهو قولنا. قلت ـ أي البيهقي ـ وعلى هذا مضى أكابرنا».

يقال: إن يده قدرته ونعمته، لأن فيه إبطال الصفة[1]، انتهى. وهذا الذي قاله الإمام رضي الله عنه، ثابت بالأدلة القاطعة: قال تعالى: **﴿ما منعك أن تسجد لما خلقتُ بيديّ﴾** [ص: ٧٥]. **﴿والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه﴾** [الزمر: ٦٧]. وقال تعالى: **﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾** [القصص: ٨٨]. **﴿ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾** [سورة الرحمن: ٢٧]. وقال تعالى: **﴿تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك﴾** [المائدة: ١١٦].

ولا يصح تأويل من قال: إن المراد باليد: القدرة، فإن قوله **﴿لما خلقت بيديّ﴾** [ص: ٧٥]. لا يصح أن يكون معناه بقدرتي مع تثنية اليد، ولو صح ذلك لقال إبليس: وأنا أيضاً خلقتني بقدرتك، فلا فضل له عليّ بذلك فإبليس ـ مع كفره ـ كان أعرف بربه من الجهمية. ولا دليل لهم في قوله تعالى: **﴿أوَ لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون﴾** [يس: ٧١]. لأنه تعالى جمع الأيدي لما أضافها إلى ضمير الجمع، ليتناسب الجمعان، اللفظيان للدلالة على الملك والعظمة. ولم يقل: «أيديّ» مضافاً إلى ضمير المفرد، ولا «يدينا» بتثنية اليد مضافةً إلى ضمير الجمع. فلم يكن قوله: **﴿مما عملت أيدينا﴾** نظير قوله: **﴿لما خلقت بيديّ﴾**.

ولكن لا يقال لهذه الصفات إنها أعضاء، أو جوارح، أو أدوات، أو أركان، لأن الركن جزء الماهية، والله تعالى هو الأحد الصمد، لا يتجزأ، سبحانه وتعالى، والأعضاء فيها معنى التفريق والتعضية[2] تعالى الله عن ذلك، ومن هذا المعنى قوله تعالى: **﴿الذين جعلوا القرآن عِضين﴾** [الحجر: ٩١]. والجوارح فيها معنى الاكتساب والانتفاع. وكذلك الأدوات هي الآلات التي ينتفع بها في جلب المنفعة ودفع المضرّة. وكل هذه المعاني منتفية عن الله تعالى، ولهذا لم يرد ذكرها في صفات الله تعالى.

(١) عزاه المحقق ص ٢٦٤ للفقه الأكبر بشرح القاري ص ٣٦، ٣٧.

(٢) قال الشيخ أحمد شاكر ص ١٦٠: التعضية: التقطيع وجعل الشيء أعضاء.

www.rahmah.de

وأما لفظ الجهة، فقد يراد به ما هو موجود، وقد يراد به ما هو معدوم، ومن المعلوم أنه لا موجود إلا الخالق والمخلوق، فإذا أريد بالجهة أمرٌ موجودٌ غيرُ الله تعالى كان مخلوقاً والله تعالى لا يحصره شيء، ولا يحيط به شيء من المخلوقات، تعالى الله عن ذلك. وإن أريد بالجهة أمر عدمي، وهو ما فوق العالم، فليس هناك إلا الله وحده. فإذا قيل: إنه في جهة بهذا الاعتبار فهو صحيح، ومعناه: أنه فوق العالم حيثُ انتهت المخلوقات فهو فوق الجميع، عال عليه.

وقول الشيخ رحمه الله: لا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات هو حق، باعتبار أنه لا يحيط به شيء من مخلوقاته، بل هو محيط بكل شيء وفوقه. وهذا المعنى هو الذي أراده الشيخ رحمه الله، لما يأتي في كلامه: أنه تعالى محيط بكل شيء وفوقه. و«سائر» بمعنى البقية لا بمعنى الجميع فيكون المعنى أن الله تعالى غير محوي كما يكون أكثر المخلوقات محويّاً.

لكن بقي في كلامه: أن إطلاق مثل هذا اللفظ ـ مع ما فيه من الإجمال والاحتمال ـ كان تركه أولى، وإلا تُسُلِّط عليه، وألزم بالتناقض في إثبات الإحاطة والفوقية ونفي جهة العلو، وإن أجيب عنه بما تقدم.

المبحث الثاني:
ذكر بعض صفات الله تعالى
أولاً: صفات الذات

(١) قدرته سبحانه

(١٩ ـ ٣) قوله: (ولا شيء يعجزه).

ش: لكمال قدرته. قال تعالى: ﴿**إن الله على كل شيء قدير**﴾ [البقرة: ٢٠]. ﴿**وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم**﴾ [البقرة: ٢٥٥]. «لا يؤوده» أي: لا يكرِثُه[1] ولا يثقله ولا يعجزه. فهذا النفي لثبوت كمال ضده، وكذلك كل نفي يأتي في صفات الله تعالى في الكتاب والسنة إنما هو لثبوت كمال ضده، كقوله تعالى: ﴿**ولا يظلم ربك أحداً**﴾ [الكهف: ٤٩]، لكمال عدله. ﴿**لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض**﴾ [سبأ: ٣]، لكمال علمه وإلا فالنفي الصِّرف لا مدح فيه، ألا ترى أن قول الشاعر:

قُبَيِّلَةٌ لا يَغْدِرون بِذِمَّةٍ ... ولا يظلمون الناس حَبَّةَ خردل[2]

لما اقترن بنفي الغدر والظلم عنهم ما ذكره قبل هذا البيت وبعده[3]،

(١) في القاموس ١٤/ ١٧٢: «كرثه الغم يكرِثه ويكرُثه بكسر الراء وضمها: اشتد عليه كأكرثه».

(٢) البيت للنجاشي قيس بن عمرو بن مالك «الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٦٨».

(٣) البيت ضمن أبيات قالها النجاشي في هجاء بني العجلان حتى ذكر ابن قتيبة أنهم استعدوا عليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه وذكر أنه قال قبل هذا البيت: =

www.rahmah.de

وتصغيرهم بقوله «قُبَيْلة» عُلم أن المراد عجزهم وضعفهم، لا كمال قدرتهم.

تفصيل الإثبات وإجمال النفي:

ولهذا يأتي الإثبات للصفات في كتاب الله مفصلاً، والنفي مجملاً، عكس طريقة أهل الكلام المذموم: فإنهم يأتون بالنفي المفصل والإثبات المجمل، يقولون: ليس بجسم ولا شبح ولا جثة ولا صورة ولا لحم ولا دم إلى آخره، وهذا النفي المجرَّد مع كونه لا مدح فيه، فيه إساءة أدب، فإنك لو قلت للسلطان: أنت لست بزبال ولا كساح ولا حجام ولا حائك! لأدبك على هذا الوصف وإن كنت صادقاً.

وإنما تكون مادحاً إذا أجملت النفي فقلت: أنت لست مثل أحد من رعيتك، أنت أعلى منهم وأشرف وأجل. فإذا أجملت في النفي أجملت في الأدب.

والتعبير عن الحق بالألفاظ الشرعية النبوية الإلهية هو سبيل أهل السنة والجماعة. فيجعلون ما قاله الله ورسوله هو الحق والذي قاله هؤلاء إما أن يعرضوا عنه إعراضاً جملياً أو يبينوا حاله تفصيلاً، وليس قول الشيخ رحمه الله تعالى «ولا شيء يعجزه» من النفي المذموم، فإن الله تعالى قال: **﴿وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض إنه كان عليماً قديراً﴾** [فاطر: ٤٤]، فنبه سبحانه وتعالى في آخر الآية على دليل انتفاء العجز، وهو كمال العلم والقدرة، فإن العجز إنما ينشأ إما من الضعف عن القيام بما يريده الفاعل، وإما من عدم علمه به، والله تعالى لا يعزُب عنه مثقال ذرة، وهو على كل شيء قدير.

= إذا الله عادى أهل لؤم ورقة فعادى بني العجلان رهط ابن مقبل

وقال بعده:

لا يردون الماء إلا عشية إذا صدر الوراد عن كل منهل

«انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٦٨، ٦٩ ط. عالم الكتب. بيروت. بدون تاريخ.

تحريف المعتزلة لمعنى قدرته على كل شيء.

(٢٠ ـ ١٧) قوله: (ذلك بأنه على كل شيء قدير[١]، وكل شيء إليه فقير، وكل أمر عليه يسير، لا يحتاج إلى شيء، ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير).

ش: قد حرَّفت المعتزلة المعنى المفهوم من قوله تعالى: **﴿والله على كل شيء قدير﴾** [البقرة: ٢٨٤]، فقالوا: إنه قادر على كل ما هو مقدور له، وأما نفس أفعال العباد فلا يقدر عليها عندهم، وتنازعوا: هل يقدر على مثلها أم لا؟! ولو كان المعنى على ما قالوا لكان هذا بمنزلة أن يقال: هو عالم بكل ما يعلمه وخالق لكل ما يخلقه ونحو ذلك من العبارات التي لا فائدة فيها. فسلبوا صفة كمال قدرته على كل شيء.

وأما أهل السنة، فعندهم أن الله على كل شيء قدير، وكل ممكن فهو مندرج في هذا. وأما المحال لذاته، مثل كون الشيء الواحد موجوداً معدوماً في حال واحدة، فهذا لا حقيقة له، ولا يتصور وجوده، ولا يسمَّى شيئاً، باتفاق العقلاء، ومن هذا الباب: خَلْق مثل نفسه، وإعدام نفسه وأمثال ذلك من المحال.

وهذا الأصل هو الإيمان بربوبيته العامة التامة، فإنه لا يؤمن بأنه رب كل شيء إلا من آمن أنه قادر على تلك الأشياء، ولا يؤمن بتمام ربوبيته وكمالها إلا من آمن بأنه على كل شيء قدير.

(٢)صفة العلم

(٢١ ـ ١٨) قوله: (خلق الخلق بعلمه).

---

(١) نقل الشيخ الألباني عن الشيخ ابن مانع قوله: «يجيء في كلام بعض الناس: «وهو على ما يشاء قدير» وليس ذلك بصواب، بل الصواب ما جاء بالكتاب والسنة، وهو على كل شيء قدير لعموم مشيئته وقدرته تعالى خلافاً لأهل الاعتزال الذين يقولون إن الله سبحانه لم يرد من العبد وقوع المعاصي بل وقعت من العبد بإرادته لا بإرادة الله...».

«العقيدة الطحاوية شرح وتعليق ص٤٦»

www.rahmah.de

ش: خلق: أي: أوجد وأنشأ وأبدع. ويأتي خلق أيضاً بمعنى: قدر. والخلق: مصدر، وهو هنا بمعنى المخلوق. وقوله: (بعلمه) في محل نصب على الحال، أي: خلقهم عالماً بهم، قال تعالى: ﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾ [الملك: ١٤] وفي ذلك رد على المعتزلة.

قال الإمام عبد العزيز المكي[1] صاحب الإمام الشافعي رحمه الله وجليسه، في كتاب «الحيدة»، الذي حكى فيه مناظرته بشراً المريسي عند المأمون حين سأله عن علمه تعالى. فقال بشر: أقول: لا يجهل، فجعل يكرر السؤال عن صفة العلم، تقريراً له، وبشر يقول: لا يجهل، ولا يعترف له أنه عالم بعلم، فقال الإمام عبد العزيز: نفي الجهل لا يكون صفة مدح، فإن قولي هذه الاسطوانة لا تجهل ليس هو إثبات العلم لها، وقد مدح الله تعالى الأنبياء والملائكة والمؤمنين بالعلم، لا بنفي الجهل. فمن أثبت العلم فقد نفى الجهل، ومن نفى الجهل لم يثبت العلم، وعلى الخلق أن يثبتوا ما أثبته الله تعالى لنفسه، وينفوا ما نفاه، ويمسكوا عما أمسك عنه.

من الأدلة النقلية على إثبات صفة العلم[2]

قال تعالى: ﴿ولا يحيطون بشيء من علمه﴾ [البقرة: ٢٥٥]. ﴿أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ [النساء: ١٦٦].

وعن جابر رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها كما يعلمنا السورة من القرآن، يقول: إذا همّ أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقل: اللهم إني أستخيرك بعلمك،

(١) قال المحقق ص ١٢٥: هو عبد العزيز بن يحيى بن عبد العزيز الكناني المكي من أصحاب الإمام الشافعي المقتبسين منه، . . . قدم بغداد أيام المأمون وجرت بينه وبين بشر المريسي مناظرة في القرآن، توفي سنة ٢٤٠ هـ، وكتاب الحيدة الذي نقل عنه الشارح لم تصح نسبته إليه ولا يثبت أنه من كلامه فيما قاله الإمام الذهبي ووافقه عليه تلميذه السبكي «انظر ميزان الاعتدال: ٢/٦٣٩، وطبقات الشافعية ٢/ ١٤٥ للسبكي».

(٢) هذه الفقرة مأخوذة من كلام الشارح على الفقرة رقم «٢٥» وهي قول الشيخ «ولا شيء مثله».

وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب. . .»[1] الحديث.

الأدلة العقلية على إثبات صفة العلم.

أ ـ أنه يستحيل إيجاده الأشياء مع الجهل، ولأن إيجاده الأشياء بإرادته، والإرادة تستلزم تصور المراد، وتصور المراد هو العلم بالمراد، فكان الإيجاد مستلزماً للإرادة، والإرادة مستلزمة للعلم، فالإيجاد مستلزم للعلم.

ب ـ ولأن المخلوقات فيها من الإحكام والإتقان ما يستلزم علم الفاعل لها، لأن الفعل المحكم المتقن يمتنع صدوره عن غير عالم.

ج ـ ولأن من المخلوقات ما هو عالم، والعلم صفة كمال، ويمتنع أن لا يكون الخالق عالماً. وهذا له طريقان: أحدهما: أن يقال: نحن نعلم بالضرورة أن الخالق أكمل من المخلوق، وأن الواجب أكمل من الممكن، ونعلم ضرورة أنا لو فرضنا شيئين، أحدهما عالم والآخر غير عالم كان العالم أكمل، فلو لم يكن الخالق عالماً لزم أن يكون الممكن أكمل منه، وهو ممتنع.

الثاني: أن يقال: كل علم في الممكنات التي هي المخلوقات فهو منه، ومن الممتنع أن يكون فاعل الكمال ومبدعه عارياً منه بل هو أحق به.

[ومما يوضح هذا: أن العلم الإلهي لا يجوز أن يستدل فيه بقياس تمثيل يستوي فيه الأصل والفرع، ولا بقياس شمولي يستوي أفراده[2]، ولكن

(١) أخرجه البخاري «١١٦٦» وأبو داود «١٥٣٨» والترمذي «٤٨٠» والنسائي «٣٢٥٣» وابن ماجه «١٣٨٣».

(٢) القياس التمثيلي هو الذي يعرفه الأصوليون: بأنه إلحاق فرع بأصل في الحكم لاشتراكهما في العلة والقياس الشمولي هو الذي يعرفه أهل المنطق بأنه: الاستدلال بكلي على جزئي بواسطة اندراج ذلك الجزء مع غيره تحت هذا الكلي.
مثال الأول: حرمان الموصَى له من الوصية إذا قتل الموصي قياساً على حرمان قاتل الموروث من الميراث.

www.rahmah.de

يستعمل في ذلك قياس الأولى، سواء كان تمثيلاً أو شمولاً، كما قال تعالى: ﴿ولله المثل الأعلى﴾ النحل: ٦٠][1]. فكل ما ثبت للمخلوق من كمال فالخالق به أحق، وكل نقص تنزه عنه مخلوق ما فتنزيه الخالق عنه أولى.

(٣) هو الأول والآخر

(٢٢ ـ ٥) قوله: (قديم بلا ابتداء، دائم بلا انتهاء)

ش: قال الله تعالى: ﴿هو الأول والآخر﴾ [الحديد: ٣]. وقال ﷺ: «اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء»[2] فقول الشيخ قديم بلا ابتداء، دائم بلا انتهاء هو معنى اسمه الأول والآخر. والعلم بثبوت هذين الوصفين مستقر في الفطر، فإن الموجودات لا بد أن تنتهي إلى واجب الوجود لذاته، قطعاً للتسلسل.

القديم ليس من الأسماء الحسنى:

وقد أدخل المتكلمون في أسماء الله تعالى القديم، وقد أنكر ذلك كثير من السلف والخلف، منهم ابن حزم.

وليس هو من الأسماء الحسنى، فإن القديم في لغة العرب التي نزل بها القرآن: هو المتقدم على غيره، فيقال: هذا قديم، للعتيق، وهذا حديث، للجديد. ولم يستعملوا هذا الاسم إلا في المتقدم على غيره، لا فيما لم يسبقه عدم، كما قال تعالى: ﴿حتى عاد كالعرجون القديم﴾[3]

= ومثال الثاني: قولنا كل إنسان حيوان، وكل حيوان جسم، فكل إنسان جسم. (راجع في ذلك «مجموع الفتاوى ٩/ ١١٩، ٢٠٢» وشرح الواسطية لهراس ص ٢٧).

(١) ما بين المعقوفتين مأخوذ من كلام الشارح على الفقرة رقم «٩» وهي قول الشيخ «لا يشبه الأنام».

(٢) أخرجه مسلم «٢٧١٣» وأبو داود «٥٠٥١» والترمذي «٣٤٠٠» وابن ماجه «٣٨٧٣» من حديث أبي هريرة.

(٣) قال ابن كثير: «وأما القمر فقدره منازل يطلع في أول ليلة من الشهر ضئيلاً قليل النور ثم يزداد نوراً... حتى يتكامل نوره في الليلة الرابعة عشرة ثم يشرع في النقص إلى آخر الشهر حتى يصير كالعرجون القديم. قال ابن عباس =

[يس: ٣٩]. والعرجون القديم: الذي يبقى إلى حين وجود العرجون الثاني، فإذا وجد الجديد قيل للأول قديم، ولا ريب أنه إذا كان مستعملاً في نفس التقدم، فإن ما تقدم على الحوادث كلها فهو أحق بالتقدم من غيره، لكن أسماء الله تعالى هي الأسماء الحسنى التي تدل على خصوص ما يمدح به، والتقدم في اللغة مطلق لا يختص بالتقدم على الحوادث كلها، فلا يكون من الأسماء الحسنى. وجاء الشرع باسمه الأول. وهو أحسن من القديم، لأنه يشعر بأن ما بعده آيل إليه وتابع له، بخلاف القديم. والله تعالى له الأسماء الحسنى لا الحسنة[1].

(٢٣ ـ ٦) قوله: (لا يفنى ولا يبيد)

ش: إقرار بدوام بقائه سبحانه وتعالى، قال عز من قائل: ﴿كل من عليها فان. ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾ [سورة الرحمن: ٢٦ ـ ٢٧]. والفناء والبَيْد متقاربان في المعنى، والجمع بينهما في الذكر للتأكيد، وهو أيضاً مقرِّر ومؤكِّد لقوله: دائم بلا انتهاء.

(٤) حياته وقيوميته:

(٢٤ ـ ١٠) قوله: (حي لا يموت قيوم لا ينام)

ش: قال تعالى: ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فنفيُ السِّنة والنوم دليل على كمال حياته وقيوميته. وقال تعالى: ﴿الم. الله لا إله إلا هو الحي القيوم. نزّل عليك الكتاب بالحق﴾ [آل عمران: ١ ـ ٣]. وقال تعالى: ﴿وعنت الوجوه للحي القيوم﴾ [طه: ١١١].

= رضي الله عنهما: وهو أصل العِذْق.. يعني ابن عباس أصل العنقود من الرطب إذا عتق ويبس وانحنى...» «انظر تفسير القرآن العظيم ٣/ ٥٥٧٣».

(١) فرق ابن القيم في بدائع الفوائد بين ما يطلق على الله سبحانه في باب الأسماء والصفات، وما يطلق عليه في باب الإخبار عنه سبحانه، وبين أن ما يطلق عليه في باب الأسماء والصفات توقيفي، وما يطلق عليه من الأخبار لا يجب أن يكون توقيفياً كالقديم والشيء والموجود والقائم بنفسه» «انظر بدائع الفوائد ١/ ١٦٢».

www.rahmah.de

وقال تعالى: ﴿وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبّح بحمده﴾ [الفرقان: ٥٨]. وقال ﷺ: «إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام»[1] الحديث.

لما نفى الشيخ رحمه الله التشبيه، أشار إلى ما تقع به التفرقة بينه وبين خلقه، بما يتصف به تعالى دون خلقه: فمن ذلك: أنه حي لا يموت، لأن صفة الحياة الباقية مختصة به تعالى، دون خلقه، فإنهم يموتون. ومنه: أنه قيوم لا ينام، إذ هو مختص بعدم النوم والسِّنة، دون خلقه، فإنهم ينامون. وفي ذلك إشارة إلى أن نفي التشبيه ليس المراد به نفي الصفات، بل هو سبحانه موصوف بصفات الكمال، لكمال ذاته. فالحي بحياة باقية لا يشبه الحي بحياة زائلة.

واعلم أن هذين الاسمين: أعني: الحي القيوم مذكوران في القرآن معاً في ثلاث سور كما تقدم، وهما من أعظم أسماء الله الحسنى، حتى قيل: إنهما الاسم الأعظم.

ما يدل عليه اسم القيوم

ويدل القيوم على معنى الأزلية والأبدية ما لا يدل عليه لفظ القديم. ويدل أيضاً على كونه موجوداً بنفسه، وهو معنى كونه واجب الوجود. والقيوم أبلغ من «القيّام» لأن الواو أقوى من الألف، ويفيد قيامه بنفسه، باتفاق المفسرين وأهل اللغة، وهو معلوم بالضرورة. وهل يفيد إقامته لغيره وقيامه عليه؟ فيه قولان، أصحهما: أنه يفيد ذلك. وهو يفيد دوام قيامه وكمال قيامه لما فيه من المبالغة فهو سبحانه الدائم الباقي الذي لم يزل ولا يزال، موصوفاً بصفات الكمال.

اقتران القيوم بالحي يستلزم سائر صفات الكمال

واقترانه بالحي يستلزم سائر صفات الكمال، ويدل على بقائها ودوامها، وانتفاء النقص والعدم عنها أزلاً وأبداً. ولهذا كان قوله: ﴿الله لا

(١) أخرجه مسلم «١٧٩» وابن ماجه «١٩٥» «١٩٦»، وأحمد «٤/ ٣٩٥، ٤٠١، ٤٠٥» من حديث أبي موسى الأشعري.

إله إلا هو الحي القيوم﴾ [البقرة: ٢٥٥]. أعظم آية في القرآن، كما ثبت ذلك في «الصحيح» عن النبي ﷺ[1].

فعلى هذين الاسمين مدار الأسماء الحسنى كلها، وإليهما ترجع معانيها. فإن الحياة مستلزمة لجميع صفات الكمال. فإذا كانت حياته تعالى أكمل حياة وأتمها، استلزم إثباتُها إثباتَ كلِّ كمال يضاد نفيُه كمال الحياة. وأما القيوم فهو متضمن كمال غناه وكمال قدرته، فإنه القائم بنفسه، فلا يحتاج إلى غيره بوجه من الوجوه. المقيم لغيره، فلا قيام لغيره إلا بإقامته. فانتظم هذان الاسمان صفات الكمال أتم انتظام.

(٥) استغناؤه عن العرش وما دونه،

(٦) وإحاطته بكل شيء،

(٧) وفوقيته سبحانه.

(٢٥ ـ ٦٢) قوله: (وهو مستغن عن العرش وما دونه، محيط بكل شيء، وفوقه، وقد أعجز عن الإحاطة خلقه).

(أ) استغناؤه عن خلقه:

ش: أما قوله: وهو مستغن عن العرش وما دونه. فقال تعالى: ﴿إن الله لغني عن العالمين﴾ [العنكبوت: ٦]. وقال تعالى: ﴿والله هو الغني الحميد﴾ [فاطر: ١٥]. وإنما قال الشيخ رحمه الله هذا الكلام ليبين أن خلقه العرش واستواءه عليه، ليس لحاجته إليه، بل له في ذلك حكمة اقتضته، وكون العالي فوق السافل لا يلزم أن يكون السافل حاوياً للعالي، محيطاً به، حاملاً له، ولا أن يكون الأعلى مفتقراً إليه. فانظر إلى السماء، كيف هي

(١) أخرجه مسلم «٨١٠» من حديث أبي بن كعب وفيه «... قال: يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟ قال: قلت: الله لا إله إلا هو الحي القيوم. قال: فضرب في صدري وقال: والله! ليهنك العلم أبا المنذر» وأخرجه أبو داود «١٤٦٠» وأحمد «٥/ ١٤٢».

www.rahmah.de

فوق الأرض وليست مفتقرة إليها؟ فالرب تعالى أعظم شأناً وأجلّ من أن يلزم من علوّه ذلك.

(ب) إحاطته بكل شيء:

أما كونه محيطاً بكل شيء، فقال تعالى: ﴿**والله من ورائهم محيط**﴾ [البروج: ٢٠]. ﴿**ألا إنه بكل شيء محيط**﴾ [فصلت: ٥٤]. ﴿**ولله ما في السموات وما في الأرض وكان الله بكل شيء محيطاً**﴾ [النساء: ١٢٦]. وليس المراد من إحاطته بخلقه أنه كالفلك، وأن المخلوقات داخل ذاته المقدسة، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً. وإنما المراد: إحاطة عظمةٍ وسعةٍ وعلمٍ وقدرةٍ، وأنها بالنسبة إلى عظمته كالخردلة. كما روي عن ابن عباس رضيَ الله عنهما أنه قال: «ما السموات السبع والأرضون السبع وما فيهن وما بينهن في يد الرحمن إلا كخردلة في يد أحدكم»، ومن المعلوم ـ ولله المثل الأعلى ـ أن الواحد منا إذا كان عنده خردلة، إن شاء قبضها وأحاط قبضته بها، وإن شاء جعلها تحته، وهو في الحالين مباين لها، عال عليها فوقها من جميع الوجوه فكيف بالعظيم الذي لا يحيط بعظمته وصف واصف.

(ج) العلو والفوقية:

وأما كونه فوق المخلوقات، فقال تعالى: ﴿**وهو القاهر فوق عباده**﴾ [الأنعام: ١٨، ٦١]. ﴿**يخافون ربهم من فوقهم**﴾ [النحل: ٥٠].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «لما قضى الله الخلق كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي سبقت غضبي»[1] وفي رواية: «تغلب غضبي».

وروى مسلم عن النبي ﷺ، في تفسير قوله تعالى: ﴿**هو الأول والآخر والظاهر والباطن**﴾ [الحديد: ٣]. بقوله: «أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت

(١) أخرجه البخاري «٣١٩٤»، «٧٤٠٤»، ومسلم «٢٧٥١»، وابن ماجه «٤٢٩٥».

الباطن فليس دونك شيء[1]» والمراد بالظهور هنا: العلو. ومنه قوله تعالى: ﴿**فما اسطاعوا أن يظهروه**﴾ [الكهف: ٩٧]. أي يعلوه. فهذه الأسماء الأربعة متقابلة: اسمان منها لأزلية الرب سبحانه وتعالى وأبديته، واسمان لعلوه وقربه.

وروى البخاري عن زينب رضي الله عنها، أنها كانت تفخر على أزواج النبي ﷺ، وتقول: زوّجكنّ أهاليكن، وزوجني الله من فوق سبع سموات[2].

الأدلة على إثبات العلو والفوقية

أولاً: الأدلة السمعية

النصوص الواردة المتنوعة المحكمة على علو الله على خلقه، وكونه فوق عباده، تقرب من عشرين نوعاً:

أحدها: التصريح بالفوقية مقروناً بأداة: مِن، المعينة للفوقية بالذات، كقوله تعالى: ﴿**يخافون ربهم من فوقهم**﴾ [النحل: ٥٠].

الثاني: ذكرها مجردة عن الأداة، كقوله تعالى: ﴿**وهو القاهر فوق عباده**﴾ [الأنعام: ١٨و٦١].

الثالث: التصريح بالعروج إليه، نحو: ﴿**تعرج الملائكة والروح إليه**﴾ [المعارج: ٤]. وقوله ﷺ: «فيعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم»[3].

الرابع: التصريح بالصعود إليه. كقوله تعالى: ﴿**إليه يصعد الكلم الطيب**﴾ [فاطر: ١٠].

الخامس: التصريح برفعه بعضَ المخلوقات إليه، كقوله تعالى: ﴿**بل**

(١) سبق تخريجه ص ٩٤.

(٢) أخرجه البخاري «٧٤٢٠» والترمذي «٣٢١٣» والنسائي «٣٢٥٢».

(٣) قطعة من حديث أخرجه البخاري «٥٥٥» ومسلم «٦٣٢» والنسائي «٤٨٥» من حديث أبي هريرة.

www.rahmah.de

رفعه الله إليه﴾ [النساء: ١٥٨].

السادس: التصريح بالعلو المطلق، الدال على جميع مراتب العلو، ذاتاً وقدراً وشرفاً، كقوله تعالى: ﴿وهو العلي العظيم﴾ [البقرة: ٢٥٥] ﴿وهو العليُّ الكبير﴾ [سبأ: ٢٣]. ﴿إنه عليٌّ حكيم﴾ [الشورى: ٥١].

السابع: التصريح بتنزيل الكتاب منه، كقوله تعالى: ﴿تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم﴾ [غافر: ٢].

الثامن: التصريح باختصاص بعض المخلوقات بأنها عنده، وأن بعضها أقرب إليه من بعض، كقوله: ﴿إن الذين عند ربك﴾ [الأعراف: ٢٠٦]. ﴿وله من في السموات والأرض ومن عنده﴾ [الأنبياء: ١٩]. ففرق بين «من له» عموماً وبين «من عنده» من ملائكته وعبيده خصوصاً.

التاسع: التصريح بأنه تعالى في السماء، وهذا عند المفسرين من أهل السنة على وجهين: إما أن تكون «في» بمعنى «على» وإما أن يراد بالسماء العلو، لا يختلفون في ذلك، ولا يجوز الحمل على غيره.

العاشر: التصريح بالاستواء مقروناً بأداة «على» مختصاً بالعرش، الذي هو أعلى المخلوقات، مصاحباً في الأكثر لأداة: «ثم» الدالة على الترتيب والمهلة.

الحادي عشر: التصريح برفع الأيدي إلى الله تعالى، كقوله ﷺ: إن الله يستحيي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صِفْراً»[1].

الثاني عشر: التصريح بنزوله[2] كل ليلة إلى سماء الدنيا، والنزول المعقول عند جميع الأمم إنما يكون من علو إلى سفل.

(١) أخرجه أبو داود «١٤٨٨» والترمذي «٣٥٥٦» وقال: حسن غريب، وابن ماجه «٣٨٦٥» والحاكم ١/٤٩٧» وصححه ووافقه الذهبي من حديث سلمان رضي الله عنه. قال الحافظ ابن حجر في الفتح ١١/١٤٧»: وسنده جيد. وقوله: صِفْراً: أي خالية.

(٢) حديث النزول سبق تخريجه ص ٦٦.

الثالث عشر: الإشارة إليه حساً إلى العلو، كما أشار إليه من هو أعلم به وبما يجب له ويمتنع عليه من جميع البشر، لما كان بالمجمع الأعظم الذي لم يجتمع لأحد مثله، في اليوم الأعظم، في المكان الأعظم، قال لهم: «أنتم مسؤولون عني، فماذا أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك قد بلَّغت وأدَّيتَ ونصحت»، فرفع أصبعه الكريمة إلى السماء رافعاً لها إلى من هو فوقها وفوق كل شيء، قائلاً: «اللهم اشهد»[1].

الرابع عشر: التصريح بلفظ: «الأين» كقول أعلم الخلق به، وأنصحهم لأمته، وأفصحهم بياناً عن المعنى الصحيح، بلفظ لا يوهم باطلاً بوجه: «أين الله»[2].

الخامس عشر: شهادته ﷺ لمن قال إن ربه في السماء بالإيمان[3].

السادس عشر: إخباره تعالى عن فرعون أنه رام الصعود إلى السماء، ليطلع إلى إله موسى فيكذبه فيما أخبره من أنه سبحانه فوق السموات، فقال: ﴿يا هامان ابن لي صرحاً لعلي أبلغ الأسباب أسبابَ السموات فأطلعَ إلى إله موسى وإني لأظنه كاذباً﴾ [غافر: ٣٦ ـ ٣٧]. فمن نفى العلو من الجهمية فهو فرعوني، ومن أثبته فهو موسوي محمدي.

السابع عشر: إخباره ﷺ: أنه تردد بين موسى عليه السلام وبين ربه ليلة المعراج بسبب تخفيف الصلاة، فيصعد إلى ربه ثم يعود إلى موسى عدة

(١) قطعة من حديث جابر المطول في الحج وقد أخرجه مسلم «١٢١٨» وأبو داود «١٩٠٥» وابن ماجه «٣٠٧٤».

(٢) أخرجه مسلم «٥٣٧» وأبو داود «٩٣٠» والنسائي «١٢١٨» من حديث معاوية بن الحكم السلمي وفيه: «وكانت لي جارية ترعى غنماً لي قبل أحد والجوانية فاطلعت ذات يوم فإذا الذيب قد ذهب بشاة من غنمها وأنا رجل من بني آدم آسف كما يأسفون لكني صككتها صكة، فأتيت رسول الله ﷺ فعظم ذلك علي قلت: يا رسول الله أفلا أعتقها؟ قال: «ائتني بها» فأتيته بها فقال لها: «أين الله؟» قالت: في السماء. قال: «من أنا؟» قالت: أنت رسول الله. قال: «أعتقها فإنها مؤمنة».

(٣) كما في الحديث السابق.

www.rahmah.de

مرار[1].

الثامن عشر: النصوص الدالة على رؤية أهل الجنة له تعالى، من الكتاب والسنة، وإخبار النبي ﷺ أنهم يرونه كرؤية الشمس والقمر ليلة البدر ليس دونه سحاب[2] ولا يرونه إلا من فوقهم، ولا يتم إنكار الفوقية إلا بإنكار الرؤية ولهذا طرد الجهمية النفيين، وصدّق أهل السنة بالأمرين معاً، وأقروا بهما، وصار من أثبت الرؤية ونفى العلوّ مذبذباً بين ذلك، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء![3]

وهذه الأنواع من الأدلة لو بُسطت أفرادها لبلغت نحو ألف دليل، فعلى المتأول أن يجيب عن ذلك كله! وهيهات له بجواب صحيح عن بعض ذلك!

بعض كلام السلف في إثبات العلو:

وكلام السلف في إثبات صفة العلو كثير جداً: فمنه: ما روى شيخ الإسلام أبو إسماعيل الأنصاري[4] في كتابه الفاروق[5]، بسنده إلى أبي مطيع البلخي: أنه سأل أبا حنيفة عمن قال: لا أعرف ربي في السماء أم في الأرض؟ فقال: قد كفر، لأن الله يقول: **﴿الرحمن على العرش استوى﴾**

(١) كما ورد في حديث الإسراء من رواية أنس عن أبي ذر رضي الله عنهما الذي أخرجه البخاري «٣٤٩» ومسلم «١٦٣».

(٢) كما في حديث أبي هريرة: «أن الناس قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر؟ قالوا: لا يا رسول الله. قال: هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟ قالوا: لا. قال: فإنكم ترونه كذلك» أخرجه البخاري «٧٤٣٧» ومسلم «١٨٢» وأبو داود «٤٧٣٠» والترمذي «٢٥٥٤».

(٣) وهذا حال الأشاعرة الذين أثبتوا الرؤية، ونفوا العلو فناقضوا أنفسهم.

(٤) هو الإمام الهروي صاحب منازل السائرين، وقد سبق الحديث عنه بهامش ص ٥٣.

(٥) قال المحقق ص ٣٨٦: نقل الإمام الذهبي في العلو ص ١٠٣ كلام أبي حنيفة وعزاه إلى «الفاروق» ونقله الشيخ علي القاري في شرح الفقه الأكبر ص ١٧١ عن الشارح.

[طه: ٥]. وعرشه فوق سبع سموات، قلت: فإن قال: إنه على العرش، ولكن يقول: لا أدري العرش في السماء أم في الأرض؟ قال: هو كافر، لأنه أنكر أنه في السماء، فمن أنكر أنه في السماء فقد كفر. وزاد غيره: لأن الله في أعلى عليين، وهو يُدعى من أعلى، لا من أسفل. انتهى. ولا يُلتفت إلى من أنكر ذلك ممن ينتسب إلى مذهب أبي حنيفة، فقد انتسب إليه طوائف معتزلة وغيرهم، مخالفون له في كثير من اعتقاداته. وقد ينتسب إلى مالك والشافعي وأحمد من يخالفهم في بعض اعتقاداتهم.

اعتراض وجوابه:[1]

قال تعالى: **﴿نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين﴾** [الشعراء: ١٩٣ ـ ١٩٥]. وفي ذلك إثبات صفة العلو لله تعالى.

وقد أورد على ذلك أن إنزال القرآن نظير إنزال المطر، وإنزال الحديد، وإنزال ثمانية أزواج من الأنعام.

والجواب: أن إنزال القرآن فيه مذكور أنه إنزال من الله. قال تعالى: **﴿حم. تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم﴾** [غافر: ١ ـ ٢]. وقال تعالى: **﴿تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم﴾** [الزمر: ١]. وإنزال المطر مقيد بأنه منزل من السماء. قال تعالى: **﴿أنزل من السماء ماء﴾** [الرعد: ١٧]. والسماء: العلو. وقد جاء في مكان آخر أنه منزل من المزن، والمزن: السحاب. وفي مكان آخر أنه منزل من المعصرات. وإنزال الحديد والأنعام مطلق، فكيف يشبه هذا الإنزال بهذا الإنزال؟! فالحديد إنما يكون من المعادن التي في الجبال، وهي عالية على الأرض، وقد قيل إنه كلما كان معدنه أعلى كان حديده أجود. والأنعام تُخلق بالتوالد المستلزم إنزال الذكور الماء من أصلابها إلى أرحام الإناث، ولهذا يقال: أنزل ولم يقل نزّل، ثم الأجنة تنزل

(١) نقلت هذا الجزء من كلام الشارح على الفقرة رقم «٣٦» والتي أولها «وإن القرآن كلام الله، منه بدا بلا كيفية» وذلك لمناسبته لموضوع العلو.

www.rahmah.de

من بطون الأمهات إلى وجه الأرض. ومن المعلوم أن الأنعام تعلو فحولها إناثها عند الوطء، وينزل ماء الفحل من علو إلى رحم الأنثى، وتلقي ولدها عند الولادة من علو إلى سُفل. وعلى هذا فيحتمل قوله: ﴿**وأنزل لكم من الأنعام**﴾ [الزمر: ٦]. وجهين: أحدهما، أن تكون«من» لبيان الجنس. الثاني: أن تكون«من» لابتداء الغاية. وهذان الوجهان يحتملان في قوله: ﴿**جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ومن الأنعام أزواجاً**﴾ [الشورى: ١١].

الرد على من تأول الفوقية بالخيرية:

ومن تأول «فوق» بأنه خير من عباده وأفضل منهم، وأنه خير من العرش وأفضل منه، كما يقال: الأمير فوق الوزير، والدينار فوق الدرهم: فذلك مما تنفر عنه العقول السليمة، وتشمئز منه القلوب الصحيحة. فإن قول القائل ابتداء: الله خير من عباده، وخير من عرشه: من جنس قوله: الثلج بارد، والنار حارة، ورسول الله أفضل من فلان اليهودي. وليس في ذلك تمجيد ولا تعظيم ولا مدح، بل هو من أرذل الكلام وأسمجه وأهجنه! بل في ذلك تنقّص، كما قيل:

ألم تر أن السيف ينقص قدره إذا قيل إن السيف أمضى من العصا[1]

وإنما يثبت هذا المعنى من الفوقية في ضمن ثبوت الفوقية المطلقة من كل وجه، فلله سبحانه وتعالى فوقية القهر، وفوقية القدر، وفوقية الذات. ومن أثبت البعض ونفى البعض فقد تنقّص.

الرد على من تأول العلو بعلو المكانة:

فإن قالوا: بل علو المكانة لا المكان، فالمكانة: تأنيث المكان، والمنزلة: تأنيث المنزل، فلفظ «المكانة والمنزلة» يستعمل في المكانات النفسانية والروحانية، كما يستعمل لفظ «المكان والمنزل» في الأمكنة الجسمانية، والمؤنث فرع على المذكر في اللفظ والمعنى، وتابعٌ له، فعلوُّ

(١) قال المحقق ص ٣٨٨: أورده الثعالبي في تتمة اليتيمة «٥/٢٩٩» مع بيت قبله... ونسبهما لأبي درهم البندنيجي.

المثل الذي يكون في الذهن يتبع علوَّ الحقيقة، إذا كان مطابقاً كان حقاً، وإلا كان باطلاً. فإن قيل: المراد علوه في القلوب، وأنه أعلى في القلوب من كل شيء. قيل: وكذلك هو، وهذا العلو مطابق لعلوّه في نفسه على كل شيء، فإن لم يكن عالياً بنفسه على كل شيء، كان علوُّه في القلوب غير مطابق، كمن جعل ما ليس بأعلى أعلى.

ثانياً: ثبوت العلو بالعقل:

أما ثبوته بالعقل فمن وجوه:

أحدها: العلم البديهي القاطع بأن كل موجودَين، إما أن يكون أحدهما سارياً في الآخر قائماً به كالصفات، وإما أن يكون قائماً بنفسه بائناً من الآخر.

الثاني: أنه لما خلق العالم، فإما أن يكون خلقه في ذاته أو خارجاً عن ذاته، والأول باطل: أما أولاً: فبالاتفاق، وأما ثانياً: فلأنه يلزم أن يكون محلاً للخسائس والقاذورات تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً. والثاني يقتضي كونَ العالم واقعاً خارج ذاته، فيكون منفصلاً، فتعينت المباينة، لأن القول بأنه غير متصل بالعالم وغيرُ منفصل عنه غيرُ معقول.

الثالث: أن كونه تعالى لا داخل العالم ولا خارجه: يقتضي نفي وجوده بالكلية، لأنه غير معقول: فيكون موجوداً إما داخله وإما خارجه. والأول باطل فتعين الثاني، فلزمت المباينة.

اعتراض وجوابه:

وقد اعتُرض على الدليل العقلي بإنكار بداهته، لأنه أنكره جمهور العقلاء، فلو كان بديهياً لما كان مختلفاً فيه بين العقلاء، بل هو قضية وهمية خيالية؟ والجواب أن يقال: إن العقل إن قبل قولكم فهو لقولنا أقبل، وإن رد العقل قولنا فهو لقولكم أعظم ردّاً، فإن كان قولنا باطلاً في العقل، فقولكم أبطل، وإن كان قولكم حقاً مقبولاً في العقل، فقولنا أولى أن يكون مقبولاً في العقل. فإن دعوى الضرورة مشتركة، فإنا نقول: نحلم بالضرورة بطلان

www.rahmah.de

قولكم، وأنتم تقولون كذلك، فإذا قلتم: تلك الضرورة التي تحكم ببطلان قولنا هي من حكم الوهم لا من حكم العقل؟ قابلناكم بنظير قولكم، وعامةُ فطر الناس، - ليسوا منكم ولا منّا - يوافقونا على هذا، فإن كان حكم فطر بني آدم مقبولاً ترجحنا عليكم، وإن كان مردوداً غيرَ مقبول بطل قولكم بالكلية، فإنكم إنما بنيتم قولكم على ما تدّعون أنه مقدماتٌ معلومة بالفطرة الآدمية، وبطلتْ عقلياتنا أيضاً، وكان السمعُ الذي جاءت به الأنبياء معنا لا معكم، فنحن مختصون بالسمع دونكم، والعقل مشترك بيننا وبينكم.

ثالثاً: ثبوت العلو بالفطرة:

وأما ثبوته بالفطرة، فإن الخلق جميعاً بطباعهم وقلوبهم السليمة يرفعون أيديهم عند الدعاء، ويقصدون جهة العلوّ بقلوبهم عند التضرع إلى الله تعالى. وذكر محمد بن طاهر المقدسي أن الشيخ أبا جعفر الهمذاني حضر مجلس الأستاذ أبي المعالي الجويني المعروف بإمام الحرمين، وهو يتكلم في نفي صفة العلوّ، ويقول: كان الله ولا عرش وهو الآن على ما كان! فقال الشيخ أبو جعفر: أخبرنا يا أستاذُ عن هذه الضرورة التي نجدها في قلوبنا؟ فإنه ما قال عارف قط: يا الله، إلا وجد في قلبه ضرورة تطلب العلوّ، لا يلتفت يمنة ولا يسرة، فكيف ندفع بهذه الضرورة عن أنفسنا؟ قال: فلطم أبو المعالي على رأسه ونزل! وأظنه قال: ويكي! وقال: حيّرني الهمذاني، حيّرني الهمذاني! أراد الشيخ أن هذا أمر فطر الله عليه عباده، من غير أن يتلقوه من المعلمين، يجدون في قلوبهم طلباً ضرورياً يتوجه إلى الله ويطلبه في العلو.

اعتراض وجوابه:

واعتُرض على الدليل الفطري: أن ذلك إنما لكون السماء قبلة للدعاء، كما أن الكعبة قبلة للصلاة، ثم هو منقوض بوضع الجبهة على الأرض مع أنه ليس في جهة الأرض؟ وأجيب على هذا الاعتراض من وجوه:

أحدها: أن قولكم: إن السماء قبلة للدعاء لم يقله أحدٌ من سلف الأمة، ولا أنزل الله به من سلطان، وهذا من الأمور الشرعية الدينية، فلا

يجوز أن يخفى على جميع سلف الأمة وعلمائها.

الثاني: أن قبلة الدعاء هي قبلة الصلاة، فإنه يُستحبُّ للداعي أن يستقبل القبلة، وكان النبي ﷺ يستقبل القبلة في دعائه في مواطن كثيرة[1].

فمن قال إن للدعاء قبلة غير قبلة الصلاة، أو أن له قبلتين: إحداهما الكعبة والأخرى السماء فقد ابتدع في الدين، وخالف جماعة المسلمين.

الثالث: أن القبلة: هي ما يستقبله العابد بوجهه، كما تُستقبل الكعبة في الصلاة والدعاء، والذكر والذبح، وكما يوجه المحتضر والمدفون، ولذلك سميت وِجهة. والاستقبال خلاف الاستدبار، فالاستقبال بالوجه، والاستدبار بالدبر.

فأما ما حاذاه الإنسان برأسه أو يديه أو جنبه فهذا لا يسمى قبلة، لا حقيقة ولا مجازاً، فلو كانت السماء قبلة الدعاء لكان المشروع أن يوجه الداعي وجهه إليها، وهذا لم يشرع، والموضع الذي ترفع اليدُ إليه لا يسمى قبلة، لا حقيقة ولا مجازاً، ولأن القبلة في الدعاء أمر شرعي تتبع فيه الشرائع، ولم تأمر الرسل أن الداعي يستقبل السماء بوجهه، بل نهَوا عن ذلك[2].

---

(١) من ذلك ما أخرجه البخاري «١٠١٢»، «١٠٢٨» ومسلم «٨٩٤» وأبو داود «١١٦١» والترمذي «٥٥٦» والنسائي «١٥٠٥» وابن ماجه «١٢٦٧» من حديث عبد الله بن زيد ابن عاصم الأنصاري وفي بعض ألفاظه «.. وأنه لما أراد أن يدعو استقبل القبلة وحول رداءه» ومنه ما أخرجه البخاري «٣٩٦٠» ومسلم «١٧٩٤» من حديث ابن مسعود قال: «استقبل النبي ﷺ الكعبة فدعا على نفر من قريش...».

(٢) لعله يشير إلى ما ورد من النهي عن رفع البصر إلى السماء في الصلاة كما في حديث أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بال أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء في صلاتهم؟ فاشتد قوله في ذلك حتى قال: لينتهن عن ذلك أو لتخطفن أبصارهم» أخرجه البخاري «٧٥٠»، وأبو داود «٩١٣» والنسائي «١١٩٣» وابن ماجه «١٠٤٤» وفي الباب عن جابر بن سمرة عند مسلم «٤٢٨» وعن أبي هريرة عند مسلم أيضاً «٤٢٩»، قال النووي في شرح مسلم «٤/ ١٥٢»: قال القاضي عياض: واختلفوا في كراهة رفع البصر إلى السماء في الدعاء في غير الصلاة، فكرهه شريح وآخرون وجوزه الأكثرون...» وانظر في ذلك أيضاً: فتح الباري «٢/ ٢٧٢»، ومعارج القبول «١/ ١٠٦».

www.rahmah.de

مع أن أمر القبلة مما يقبل النسخ والتحويل، كما تحولت القبلة من الصخرة إلى الكعبة. وأمر التوجُّه في الدعاء إلى الجهة العلوية مركوزٌ في الفطر، والمستقبل للكعبة يعلم أن الله تعالى ليس هناك، بخلاف الداعي، فإنه يتوجه إلى ربه وخالقه، ويرجو الرحمة أن تنزل من عنده.

وأما النقض بوضع الجبهة فما أفسده من نقض، فإن واضع الجبهة إنما قصدُه الخضوع لمن فوقه بالذلّ له، لا أن يميل إليه إذْ هو تحته! هذا لا يخطر في قلب ساجد. لكن يحكى عن بشر المريسي أنه سُمع وهو يقول في سجوده: سبحان ربي الأسفل!! تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علوّاً كبيراً. وإن من أفضى به النفي إلى هذه الحال لحري أن يتزندق، إن لم يتداركه الله برحمته، وبعيد من مثله الصلاح، قال تعالى: ﴿**ونقلّب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة**﴾ [الأنعام: ١١٠].

وقوله: (وقد أعجز عن الإحاطة خلقه) أي لا يحيطون به علماً ولا رؤية، ولا غير ذلك من وجوه الإحاطة، بل هو سبحانه محيط بكل شيء، ولا يحيط به شيء.

ثانياً: صفات الفعل

(١) الكلام:

(٢٦ ـ ٣٦) قوله: (وإن القرآن كلام الله، منه بدا بلا كيفية قولاً، وأنزله على رسوله وحياً، وصدقه المؤمنون على ذلك حقاً، وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة، ليس بمخلوق ككلام البرية. فمن سمعه فزعم أنه كلام البشر فقد كفر، وقد ذمه الله وعابه وأوعده بسقر حيث قال تعالى: ﴿**سأصليه سقر**﴾ [المدثر: ٢٦]. فلما أوعد الله بسقر لمن قال: ﴿**إن هذا إلا قول البشر**﴾ [المدثر: ٢٥]. علمنا وأيقنا أنه قول خالق البشر، ولا يشبه قول البشر).

ش: هذه قاعدة شريفة، وأصل كبير من أصول الدين، ضل فيه طوائف كثيرة من الناس. وهذا الذي حكاه الطحاوي رحمه الله هو الحق الذي دلت عليه الأدلة من الكتاب والسنة لمن تدبرهما، وشهدت به الفطرة السليمة التي لم تغير بالشبهات والشكوك والآراء الباطلة.

افتراق الناس في مسألة الكلام:

وقد افترق الناس في مسألة الكلام على أقوال:

منها: أنه مخلوق خلقه الله منفصلاً عنه، وهذا قول المعتزلة.

ومنها: أنه معنى واحد قائم بذات الله، هو الأمر والنهي والخبر

يتبع باقي الكتاب في القريب
إن شاء الله.
(الفهرس ⇩)

www.rahmah.de

فهرست

الموضوع	الصفحة
تقديم بقلم فضيلة الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين	أ
مقدمة	٥
الأصل الذي اعتمدت عليه	٨
عملي في هذا التهذيب	٩
ترجمة الإمام الطحاوي	١٢
ترجمة الإمام ابن أبي العز	١٤
متن العقيدة الطحاوية	١٥
من مقدمة الشارح	٢٦
الباب الأول: الإيمان بالله	٣١
الفصل الأول: التوحيد	٣٣
أنواع التوحيد	٣٦
طريقة أخرى لبيان أقسام التوحيد	٣٧
النوع الأول: توحيد الربوبية	٣٨
المبحث الأول: معنى توحيد الربوبية	٣٨
دليل التمانع عند المتكلمين	٣٩
وجود الشرك في بعض الربوبية	٤٠
المبحث الثاني: الميثاق	٤١
الإقرار بالربوبية أمر فطري	٤٥
المبحث الثالث: بعض معاني الربوبية	٤٦

www.rahmah.de

الخالق الرازق ٤٦
المحيي المميت ٤٦
ملكه سبحانه لكل شيء ٤٧
المبحث الرابع: سبق ربوبيته سبحانه ٤٨
النوع الثاني: توحيد الألوهية ٥١
المبحث الأول: بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية ٥١
دليل التمانع في الألوهية ٥٤
المبحث الثاني: طرق القرآن في تقرير توحيد الألوهية ٥٥
١ ـ الاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية .. ٥٥
٢ ـ شهادة الله سبحانه على توحيد الألوهية ٥٦
٣ ـ الاستدلال بأسماء الله وصفاته على توحيد الألوهية .. ٥٧
المبحث الثالث: الدعاء ٥٩
الرد على من زعم عدم فائدة الدعاء ٥٩
المعنى الصحيح لإجابة الدعاء ٦٠
عدم تأثير السائل في المسؤول ٦٢
المبحث الرابع: التوسل ٦٤
المبحث الخامس: التنبيه على بعض أمور الشرك ٦٩
١ ـ الكهانة والعرافة ٦٩
٢ ـ التنجيم ٧١
٣ ـ الشعوذة والدجل ٧٢
٤ ـ السحر ٧٢
٥ ـ الرقى الشركية ٧٣
٦ ـ الاستعاذة بالجن ٧٤
٧ ـ القول بالحقيقة والشريعة ٧٥
وجوب السعي في إزالة تلك المنكرات ٧٧
النوع الثالث: توحيد الأسماء والصفات ٧٨
المبحث الأول: منهج أهل السنة في توحيد الصفات ٧٨

١ ـ إثبات الصفات والرد على المعطلة ٧٨
٢ ـ الرد على المشبهة ٨٠
٣ ـ النفي والتشبيه من أمراض القلوب ٨٢
٤ ـ أزلية صفات الله وأبديتها ٨٤
٥ ـ تنزية الله عن الحدود والغايات والأعضاء ٨٥
المبحث الثاني: ذكر بعض صفات الله تعالى ٨٩
أولاً: صفات الذات ٨٩
١ ـ قدرته سبحانه ٨٩
٢ ـ صفة العلم ٩١
٣ ـ هو الأول والآخر ٩٤
٤ ـ حياته وقيوميته ٩٥
٥ و٦ و٧ ـ استغناؤه عن العرش وما دونه وإحاطته
وفوقيته سبحانه ٩٧
الأدلة على إثبات العلو والفوقية ٩٩
ثانياً: صفات الفعل ١٠٩
١ ـ الكلام ١٠٩
٢ ـ الغضب والرضى ١٢٢
٣ ـ الخلة ١٢٤
٤ ـ العرش والكرسي ١٢٧
الفصل الثاني: أبحاث الكفر والإيمان ١٢٩
أولاً: أبحاث الإيمان ١٣١
المبحث الأول: تعريف الإيمان ١٣١
المبحث الثاني: تفاضل أهل الإيمان ١٤٠
المبحث الثالث: زيادة الإيمان بالطاعات ونقصه بالمعاصي ١٤٣
المبحث الرابع: الإسلام والإيمان والإحسان ١٤٥
حقيقة الإسلام ١٤٦
المبحث الخامس: مسألة الاستثناء في الإيمان ١٥٣

www.rahmah.de

المبحث السادس: أركان الإيمان ١٥٧
ثانياً: أبحاث التكفير ١٦٠
المبحث الأول: القول في أهل الكبائر ١٦٠
المبحث الثاني: مسألة تكفير المعين ١٦٨
عدم الشهادة لمعين بجنة أو نار ١٧٣
المبحث الثالث: كفر دون كفر ١٧٤
المبحث الرابع: الحكم بغير ما أنزل الله ١٧٦
الباب الثاني: الإيمان بالملائكة ١٧٩
المسألة الأولى: تعريف بالملائكة ١٨١
المسألة الثانية: ذكر الملائكة في القرآن والسنة ١٨١
المسألة الثالثة: بعض أصناف الملائكة ١٨٢
الكرام الكاتبون ١٨٣
ملك الموت ١٨٤
المسألة الرابعة: المفاضلة بين الملائكة وصالحي البشر ١٨٥
الباب الثالث: الإيمان بالكتب المنزلة على المرسلين ١٨٧
الباب الرابع: الإيمان بالرسل ١٩٣
الفصل الأول: الإيمان بالرسل إجمالاً وبمن سمى الله في كتابه تفصيلاً ١٩٥
الفصل الثاني: أبحاث في النبوة والرسالة ٢٠١
المبحث الأول: الفرق بين النبي والرسول ٢٠٣
المبحث الثاني: إثبات النبوة ٢٠٥
المبحث الثالث: بين النبوة والولاية ٢٠٨
الفصل الثالث: الإيمان بنبينا ﷺ ٢١١
المبحث الأول: اصطفاء الله لنبيه ﷺ ٢١٣
المبحث الثاني: أدلة نبوة محمد ﷺ ٢١٤
المبحث الثالث: بعض خصائصه وفضائله ﷺ ٢١٧
١ ـ خاتم النبيين ٢١٧
٢ ـ إمام الأتقياء ٢١٨

٣ ـ سيد المرسلين ٢١٨
٤ ـ الخلة والمحبة ٢٢٠
٥ ـ عموم بعثته ﷺ ٢٢١
٦ ـ الإسراء والمعراج ٢٢٢
الباب الخامس: الإيمان باليوم الآخر ٢٢٩
الفصل الأول: الحديث عن الروح ٢٣١
حقيقة الروح ٢٣١
هل الروح قديمة أو مخلوقة؟ ٢٣٢
هل خلق الأرواح سابق لخلق الأجساد؟ ٢٣٣
هل النفس هي الروح؟ ٢٣٤
مراتب النفوس ٢٣٥
هل تموت الروح؟ ٢٣٥
الفصل الثاني: عذاب القبر ونعيمه ٢٣٧
الفصل الثالث: ما ينتفع به الميت من عمل الأحياء ٢٤٥
الفصل الرابع: أشراط الساعة ٢٥٢
الفصل الخامس: البعث والجزاء ٢٥٥
من حجج القرآن في إثبات المعاد ٢٥٦
العرض والحساب ٢٥٩
الحوض ٢٦١
الميزان ٢٦٣
الصراط ٢٦٦
الفصل السادس: وجود الجنة والنار وأبديتهما ٢٦٩
الفصل السابع: الرؤية ٢٧٩
الفصل الثامن: الشفاعة ٢٨٨
الباب السادس: الإيمان بالقدر ٢٩٥
الفصل الأول: قول أهل السنة في القدر ٢٩٧
الفصل الثاني: علمه سبحانه المحيط بكل شيء ٣٠٣

www.rahmah.de

الفصل الثالث: الإرادة الإلهية ٣٠٨
الفصل الرابع: مشيئة الله النافذة ٣١٤
ولا يظلم ربك أحداً ٣١٦
عدل الله وفضله ٣١٧
الآجال بيد الله وحده ٣١٩
شبهتان حول المشيئة وردهما ٣٢١
الفصل الخامس: الهدى والضلال ٣٢٤
الفصل السادس: خلق أفعال العباد ٣٢٥
الفصل السابع: الحسنة والسيئة ٣٣٢
الله لا يخلق شراً محضاً ٣٣٣
الفصل الثامن: الاستطاعة ٣٣٥
لا تكليف إلا بما يطاق ٣٣٦
الفصل التاسع: النهي عن التعمق في القدر ٣٣٩
خاتمة في القدر ٣٤٣
الباب السابع: متفرقات ٣٤٥
الفصل الأول: الاعتصام بالسنة والجماعة ٣٤٧
خبر الواحد وحجيته ٣٤٨
الجماعة حق والفرقة زيغ ٣٥٠
أدب الخلاف في الإسلام ٣٥١
طاعة ولاة الأمر في غير معصية ٣٥٥
لا نرى السيف إلا على من وجب عليه السيف ٣٥٦
الصلاة خلف كل بر وفاجر ٣٥٧
طاعة ولي الأمر في مواطن الاجتهاد ٣٥٩
الصلاة على من مات من المؤمنين ٣٥٩
الحج والجهاد ماضيان إلى قيام الساعة ٣٦٠
المسح على الخفين ٣٦٢
الفصل الثاني: الموقف من الصحابة ٣٦٥

حب الصحابة دين وإيمان ٣٦٥
إثبات خلافة أبي بكر ٣٦٨
خلافة عمر ٣٧١
خلافة عثمان ٣٧٢
خلافة علي ٣٧٤
العشرة المبشرون بالجنة ٣٧٦
إحسان القول في الصحابة براءة من النفاق ٣٨٠
الفصل الثالث: محبة أهل الإيمان وموالاتهم ٣٨١
الحب في الله والبغض في الله ٣٨١
الموقف من علماء السلف ٣٨٣
المؤمنون كلهم أولياء الرحمن ٣٨٤
الإيمان بكرامات الأولياء ٣٨٧
الفصل الثالث: ذم الكلام ٣٩١
تقديم النقل على العقل ٣٩١
تحريم القول على الله بغير علم ٣٩٣
الإعراض عن الكتاب والسنة سبب الضلال ٣٩٣
بعض أقوال العلماء في ذم الكلام ٣٩٦
حيرة أهل الكلام وتشككهم ٣٩٨
التأويل واستعماله في غير معناه ٤٠١
أمراض القلوب ٤٠٣
الفصل الرابع: وسطية الإسلام ٤٠٥
الفصل الخامس: البراءة من الفرق الضالة ٤١٣
ثبت بأهم المراجع ٤٢١
فهرست ٤٢٩